اللغات الافرنجية [1]

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبية ومضارها في مجتمعنا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغة العربية فكان من أثر ذلك الحوار ان بطلت دروس الاشياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع في تعليم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً .

فقام بعض الناس متخذين من هذا الاصلاح حجة على قلة غناء اللغات الافرنجية زاعمين ان في العربية مايكفيها من العلوم . على حين كان مادعا اليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر أريد به إحياء لغة البلاد اذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حب أمتهم ليعم النفع مما يتعلمون لا التنفير من تعلم اللغات الافرنجية التي لايمترى عاقلان في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو مايفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .

نقول تعلم اللغات الأجنبية وما أحرانا ان نقول اتقانها لان المبادىء البسيطة منها قد لاتفيد المتعلم الا توهمه انه أصبح من العارفين . فان تعوذ علماؤنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا ان نتعوذ من ناشىء يتعلم طرفاً من لغة لايستفيد منها ولا يفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوبا على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في تعلم احدى اللغات الاوروبية القدر الذي يؤهلهم للانتفاع بها في التجارة وأعمال الادارة والقضاء والعلم .

---

(١) نشرت في جريدة المؤيد (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

ولا مشاحة فى أن أكثر من تعلموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقنوها وان حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم مايستطيعون معه ان يعبروا به عن أفكارهم وينقلوا اليها مايموزها من علوم الغرب وحضارته . بيد أن اللغة وان أتقنها صاحبها لاتنفعه وينتفع بها النفع المطلوب الا اذا أضاف اليها علماً أو فناً أخصى فيه واللغة آلة لاغاية وان كان من يتقن لغة أوروبية لايتسنى له ذلك الا بعد ان ينظر نظرة اجمالية فى الفنون المتعارفة . أما مايقوله بعض من لا يساعدهم الوقت على تعلم لغة أجنبية من أنه ليس فى النقل من اللغات الغربية كبير أمر وأن العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم الحضارة فهذا من الآراء التى يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً عاداه . اذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا فى صحيفة الكون لانستطيع أن ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب ولا الهندسة ولا الفلك والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرها من الفروع الكثيرة التى لا أسماء لها فى العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تتم سعادة مجتمع اليوم الا بتعلمها واتقانها . ومن قال بان أسلافنا من العرب قد أجالوا فى هذه العلوم قداح أنظارهم ووضعوا فيها ماوضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو على صواب وخطاء . وذلك ان أجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم فى عصر تماسكهم وانبساط ظل دولتهم الا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهى القرون التى كانت فيها الأمة العربية فى غفلة والأمم الغربية في انتباه فأخذ الغرب عن الشرق ماعنده من حضارة وزاد عليها أضعافاً ولا يزال يركض طرف عقله فى مضمار البحث والاستقراء ويعانى من ضروب العلم مانحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدىء بالتهجئة بالنسبة الى عالم يكتب الكتاب ويقصد القصيد

فالأمة العربية اذا أرادت النهوض العقلى والعلمى يجب عليها ان تأخذ من كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الامم الغربية وهذا لايتأتى الا بعد أن تخرج مدارسنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ماينقصنا من أسباب نهضتنا وما

تشتد حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد مفقوداً بيننا اللهم الا طائفة من أسفار نقلها بعض المولعين بالعربية وما يتيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر من علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير

قال ابن رشد فى فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال : اذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر فى القياس الفقهى فبين انه ان كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلى وأنواعه انه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه وأن يستعين فى ذلك المتقدم بالمتأخر حتى تكمل المعرفة فانه عسيراً وغير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه من معرفة أنواع القياس الفقهى بل معرفة القياس العقلى أحرى بذلك وأن كان غير ناقد فحص عن ذلك فبين انه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة فان آراءه التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية بها كونه آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة وأعنى بغير المشارك من نظر فى هذه الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر فى أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغى أن نضرب بايدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صواباً قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التى بها يقدر على الاعتبار فى الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع فى الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذى استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية وبين أيضاً أن هذا الغرض انما يتم لنا فى الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين فى ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ماعرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة فى وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف

قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً الا بوحي أو شيء يشبه الوحي . بل لو قيل ان الشمس أعظم من الارض بنحو ١٥٠ ضعفاً أو ستين يعد هذا القول جنونا من قائله .

وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم « قال وهذا أمر بين بنفسه ليس في الصنائع العامية فقط وفي العملية فانه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة . واذا كان هذا فقد يجب علينا ان لقينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم :

هذا ما قاله الفيلسوف الاسلامي في عصر كان العرب أساتذة العلم في العالم وقوله كما رأيت غاية الحكمة وما الغربيون الآن بالنسبة الينا الا قدماء متقدمون وبهديهم يجب علينا أن نهتدي في العلوم . وهذا لا يقدح فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطانهم . أما اللغات الحديثة التي تشتد حاجتنا الى الاخذ منها فهي الانكليزية والافرنسية والالمانية . وفي كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم .

وليت شعري اذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والادبية والاخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زبر على أحجاره ألسنا نحن أحرياء بان نتعلم لغاتهم على مقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر ؟

الا أن ما نفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام إذا أنصفنا قامت بفضل

التراجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا بايدى علماء الكلام مثلا . وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد أولئك الجمع . وشتان بين المفرق والمجمع . وليس معنى هذا انكار فضل من تحضوا لخدمة الشريعة واللغة فى القرون الاولى للاسلام وما فى الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالى والماوردى هم فى حسن بلائهم فى خدمة هذه الأمة دون أبى الريحان البيرونى ونصير الدين الطوسى وحنين بن اسحق وثابت بن قرة . وما كان قط أهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثانى ولا العكس لما وقر فى النفوس من أن المجتمع لا يقوم على أمتن الدعائم الا اذا أتقن كل ذى علم عمله

قال الجاحظ : الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وناقش العلماء فانه لا يمكن أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بكل نظار عظيم واستعان بكل بحاث واع وكل نقاب فى البلاد ودارسة للكتب . وما أشك ان عند الوزراء فى ذلك ماليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ماليس عند الوزراء ، وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الانبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق فى بلوغه أعجز ، وانما علم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم .

وقال الراغب الاصفهانى فى الذريعة : العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور فى طريق الحج والغزو ضمن منازله معرفة اللغة التى عليها بنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط ومعرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته فى حق ما هو بصدده فهو فى جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه لكن قلما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته ، وشره فى مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه ، يصير لاجل تنفيق سلعته ، صارفاً عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم ، وعائباً له ، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل فى منزلة من منازل العلم دون الغاية عائباً لما فوقه ،

وصار فاعمن رامه فان قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس فعل اه .

وان ما فى عبارة هـذين الخبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعى وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق فى العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتكافل الاجتماعى ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الاولي للثانية لينتفع بهـا المجتمع حق الانتفاع ومثل لذلك بمن نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الاسلامية الاولى فقال : انه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العـلم الذى يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما واليهما فمن كان يجيد السريانية لايحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكة أو عاميـة فيجىء المصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربى فتجىء معرباتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هـذا درج ديوان الترجمة فى الدولة العـلوية الخديوية فى القرن الثالث عشر فى مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التى نقلت الى العربية حتى فى هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين فى بغداد والامويين فى الاندلس والاسرة العلوية فى القاهرة أن تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الحافظة والحفاظ (١)

أى نعمة ينالها المرء أعظم من أن تعى ذاكرته كل ماتريد وعيه ، وتدخره الى ساعة الحاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة فى ترقية الافراد والجماعات ، وبدونها يصعب الوصول الى إدراك الحقائق وتمحيصها ، لانا اذا لم نستعن فى كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ، ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله ، كنا أشبه بمن يريد أن يبنى له كل يوم بناء ، وظلت العلوم

(١) نشرت في المجلد الثالث من مجلة المقتبس (١٩٠٩)

والصناعات والآداب فى طفولتها الاولى تجرى على نظام مضطرب ، اذ يكون كل امرىء ومايختار

والذاكرة أو الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهى بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (١٥٩٢ م) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفوكولد الكاتب (١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما شكا قط أحد من عقله . قال آخر : ان الذكاء بدون حافظة أشبه بغربال لايكاد يمسك ما تضعه فيه . وقال أحدهم . الحافظة واسطة من وسائط الكمال وبدونها لايستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يتعمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة. وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوبا فكن ذكوراً . وقال بيكته الأديب السويسرى (١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس فى العصور الأولى أكثر مما صار لها فى القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هى التى تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التى قلما نحفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلف مذهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها ، أو فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ، ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعى الحافظة الارقام والأعداد ، وتحفظ العبارات والمفردات . وتحكم اللغات واللهجات وتردد الالحان والاصوات . ويقول علماء النفس . إن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الأنسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة فى ضعف الحافظة لانهما ملازمان لضعف تغذية الأنسجة . ولذلك قالوا إن درجة الحافظة لاتختلف بحسب الاشخاص بل تختلف فى الشخص الواحد فى أدوار مختلفة من حياته ، واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التى تضر بها فان هناك أيضاً أحوالا أقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة ، فان

جميع هذه العوارض على الجسم يغيرها تغييراً محسوساً

ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر فى الحافظة فقد ذكر بلين البليغى الرومانى أن رجلا نسى حتى رسائله بعد أن أصيب بشجة فى رأسه . وزعم البابا كليمان السادس أن حافظته قويت قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة فى دماغه . وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طولى فى تخصيص الحافظة بشىء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهى من اللوازم لهم فى صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة فى تذكر صور الاشخاص وليس البشر كلهم سواء فى الحفظ والاستظهار ، فمنهم من يحفظون الاشكال الهندسية وهم الذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية فى الانغام كالموسيقيين وغيرهم فى غير ذلك . ومن الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الاطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها فى الحال ويتلونها على مسامعك لاول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة يمتاز بها الاولاد فى العادة أكثر من الكبار فى السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكر فيحفظون الكلمات التى يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها . والسبب فى سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكر فيهم ، وعند ما يبدأ التفكر فى معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهية اذا كانت هى وحدها فى الانسان لا تكون له سبيلا الى التفكر ومن فقد الاولى فلا يأسف لحاله لانه يستطيع بقوة التفكر ان يأتى بالجيد من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر العوائق عن جودة التصور

وبعد فان للحافظة شأناً عظيما فى ترقية الفكر الانسانى وبدونها يكون كل شىء عقيما لا ثمرة له ، لأنها واسطة لبقاء الافكار التى صدرت ، وأحسن ذريعة للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذى تسير عليه كما أن جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن كما تقدم ، وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها

ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فمنهم فى القديم ميثريداتس الكبير ملك شمالى غربى آسيا الصغرى (١٢٣ — ٦٣ ق . م) فقد كان يحكم على

اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب امام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه . وذكروا مثل ذلك عن فورش ملك الفرس وتيمو ستقلس وسيبيون الآسياوى والامبراطور ادريان ويقال ان مزية الحافظة هيأت لاوتون الرومانى تولى الملك . وتعلم تيمو ستقلس اللغة الفارسية فى سنة

وكان ليبس اللغوى الأديب البلجيكى (١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتينى بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى أن يقف جلاد وبيده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا أخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودى بون حافظة سعيدة يذكر جميع الابيات اللاتينية واليونانية التى قرأها فى صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هو ميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة . وكان هودج دونو الفقيه المشهور فى القرن السادس يستظهر القوانين المعروفة فى عصره بالحرف الواحد . وحفظ يوسف سكاليجه الأديب (١٦٠٩) الالياذة والأوذيسية فى واحد وعشرين يوماً . ومن ألطف مايروي فى باب الحافظة ان أحد الفلاحين فى فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً قديماً له كان استلف منه خمسة فرنكات منذ خمس عشرة سنة وطلب اليه ان ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له : هذا ياصاح فقد كنت نلت وأنا فى المدرسة ليرة جائزة على حافظتى فرأيتك أحد منى ذاكرة وانك أحق بهذه الجائزة منى

***

ليس فى الدنيا خير محض ، فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نفعها أهل الارض كافة ، ولكن ماعتمت ان نتج عنها بعض شر اذا أصبح الناس يعتمدون على الكتب فى جماع علومهم وآدابهم ، بعد ان كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم . والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان فى الاسلام على أشده قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات . ولما بلغ بعض الأئمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعى تقهقر العلم ، وانقطاع سند الرواية ، وما زالت الحال ترتقى بعض الشىء فى بعض الاعوام ثم يزهد فى الحفظ حتى انتشرت الطباعة فى بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية ، فأمسى الناس يستندون

الى السطور بدل الصدور ، والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار . فضعفت بهذا الضعف الحافظة ، وان قويت المفكرة ، وقلت الرواية ، وان لم تقل الدراية .

انقطع سند الحفظ الا فى بعض مالا يسع الامة جهله من القرآن وعلومه فأخذ بعضهم يفتاتون على من عرفوا قديماً بسعة محفوظهم ، ويزيفون ولكن بدون برهان مارواه طائفة الراوين من أنباء الأذكياء الحافظين . ولو صح الاعتماد على القاء الكلام على عواهنه فى هذا الباب اذاً لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل خبر حتى من مجىء الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما اليها . وما أشبه من يكذب بادىء الرأى بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء . وشتان بين المخرب والمعمر ، والمتلف والمخلف ، والمفسد والمصلح .

***

ماعنيت أمة بتدوين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم ولغتهم فكان من أمر حفظة الكتاب العزيز ماشتهر فى كل مصر وعصر ولايزال فى البلاد اثر من آثار تلك العناية . اما الأحاديث فقد عنوا بها قديماً وجمعوا أشتاتها ، وبينوا صالحها من موضوعها . وضعيفها من قويها ، مما يدركه كل من كان له الملم بالمراجعة ونظر فى كتب القوم . لم يكن العلم فى القرون الأولى للاسلام بالارث ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكد القرائح يسير على قوانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوفاً من الأحاديث بأسانيدها فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحديث بأسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والاسناد جميعاً والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن والراوى على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى . والمحدث من عرف الاسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالى والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد ابن حنبل وسنن البيهقى ومعجم الطبرانى وضم الى هذا القدر الف جزء من الاجزاء

الحديثة، هذا أقل درجاته، فاذا سمع ماذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم فى العلل والوفيات والمسانيد كان فى أول درجات المحدثين . وكان السلف يستمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون قال بعضهم

ان الذى يروى ولكنه يجهل مايروى وما يكتب
كصخرة تنبع أمواهها تسقى الاراضى وهى لا تشرب

سأل تقى الدين السبكى الحافظ جمال الدين المزى عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز له أن يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال : أقل مايكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له : هذا عزيز فى هذا الزمان أدركت أنت أحداً كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطى ثم قال : وابن دقيق العيد كان له فى هذا مشاركة جيدة . قال فتح الدين بن سيد الناس وأما المحدث فى عصرنا فهو من اشتغل فى الحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات فى عصره وتميز فى ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فان توسع فى ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقته أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث من الاملاء فذلك بحسب أزمنتهم .

وقال أبو ذرعة الرازى : كان أحمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الابواب . وقال البخارى . احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتى الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم فى المدخل كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث : سمعت أباعبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق بن ابراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفتى يعنى أبا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث قال البيهقى : أراد ماصح من الاحاديث وأقاويل الصحابة والتابعين وقال غيره : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق

أن أبا زرعة يحفظ مائتي الف حديث هل يحنث قال لا . ثم قال احفظ مائة الف حديث كما يحفظ الانسان سورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة الف حديث وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ : كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة الف حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن : وكان اسحق بن راهويه يملي سبعين الف حديث حفظاً وأسند بن عدي عن بن شبرمة عن الشعبي قال : ما كتبت سواداً في بيضاء الى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته فحدثت بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال : تعجب من هذا قلت نعم قال ، ما كنت لأسمع شيئاً الا حفظته وكأني أنظر الى سبعين الف حديث أو قال أكثر من سبعين الف حديث في كتبي . وأسند عن أبي داود الخفاف قال سمعت اسحق بن راهوية يقول : كأني أنظر الى مائة الف حديث في كتبي وثلاثين ألفاً أسردها : وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال . سمعت اسحق بن راهويه يقول : أعرف مكان مائة الف حديث كأني أنظر اليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي وأحفظ أربعة آلاف ضرورة وقال عبد الله ابن احمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع : كان يحدثكم اسماعيل ابن عياش هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم ما رأيت معه كتابا قط قال له : لقد كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال : أكان يحفظ عشرة آلاف قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع . وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين الف حديث وقال الآجري : كان عبد الله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حديث

قال السبكي لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي والوالد وغالب ظني ان المزي يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الامام أبي الحجاج المزي وبلغني عنه انه قال ما رأيت أحفظ من أربعة : ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزي فالاول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالانساب والثالث بالمتون والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطي يقول : ما رأى شيخنا أحفظ من زكي

الدين عبد العظيم وما رأى الزكى أحفظ من أبى الحسن على بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغنى ولا رأى عبد الغنى أحفظ من أبى موسى المدينى الا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى بن عساكر والمدينى أحفظ من أبى القاسم اسماعيل بن محمد التيمى ولا رأى اسماعيل أحفظ من أبى الفاضل محمد بن طاهر المقدسى ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماكولا ولا رأى ابن ماكولا أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبى نعيم وأبو نعيم ما رأى أحفظ من الدارقطنى وأبى عبد الله بن منده ومعهما الحاكم وكان ابن منده يقول ، ما رأيت أحفظ من أبى اسحق بن حمزة الاصبهانى وقال بن حمزة : ما رأيت أحفظ من أبى جعفر احمد بن يحيى بن زهير الشقيرى وقال ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازى وأما الدار قطنى فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأي أحفظ من الدار قطنى بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبى على النيسابورى ومن ابى بكر الجعابى وما رأى الثلاثة أحفظ من أبى العباس بن عقدة ولا رأى أبو على النيسابورى مثل النسائى ولا رأى النسائى مثل اسحق ابن راهوية ولا رأى أبو زرعة مثل أبى بكر بن أبى شيبة وما رأى أبو على النيسابورى مثل بن خزيمة وما رأى بن خزيمة مثل أبى عبد الله البخارى ولا رأى البخارى فيما ذكر مثل على بن المدينى أولا رأى أيضاً أبو زرعة والبخارى وأبو حاتم وأبو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهوية ولا رأى احمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السختيانى نعم ولا رأى مالك مثل الزهرى ولا رأي الزهرى مثل ابى المسيب ولا رأى بن المسيب احفظ من أبى هريرة ولا رأى أيوب مثل بن سيرين ولا رأى مثل أبى هريرة نعم ولا رأى الثورى مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم فى حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لوارد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسهلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة الا قليلا

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساكر انه أحفظ شيخ لقيه وشيوخ بن عساكر زهاء الف ومائتى شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمنى يحفظ ما سمعه من مرة واحدة . وكان الشافعى من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة فى تعلم الادب والتاريخ وقال ما أردت بهذا الا الاستعانة على الفقه : ويروى أنه نظر فى كتاب لابى حنيفة فما كان من الغد الا أن غدا راويا له مستظهراً إياه بجملته . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله فى اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إملائها من محفوظه . وقيل ان أحمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث . قال سعيد بن جبير من أعلام التابعين قرأت القرآن فى ركعة فى البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذى قال فيه احمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد ابن جبير وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر الى علمه

وكان على الرازى يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحداً القضاء حتى يمتحنوه فان حفظه قلدوه القضاء ولا أمروه بالحفظ. وذكر صاحب نتيج الطيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له وكان لايجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة وكان بديع الزمان الهمذانى يحفظ خمسين بيتاً بسماع واحد ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر فى كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر فى الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله فى الكتب الواردة وغيرها . وكان أبو رياش أحمد بن ابراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر الا أن أبا محمد المافروخى بذ عليه لانهما اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة

فيأتى أبو رياش على عيونها فيقول أبو محمد الا أن تهذها من أولها الى آخرها فينشد معه ويتناشدان الى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو رياش ان يأتى بها الى آخرها وفعل ذلك فى أكثر من مائة قصيدة حدثنى بذلك من حضر ذلك المجلس معهما — قاله ياقوت فى معجم الادباء .

وكان الحفظ فى كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف ضروبه عند العرب على نحو مايتضح من تصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد المؤلفين فى الاغلب الا على مافى لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغانى حداتهم كما يؤخذ من اجتماعاتهم فى سوق عكاظ ومربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة لأن أمراء الكلام لم ينبغوا الا فى الاسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب العزيز . ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ أحدنا هذا العهد الابيات القليلة غير متعلثم ولا متردد . خذ مثالا لذلك حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروى المئات من القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروى فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروى قصة وكان ملوك بنى أمية يرجعون اليه فى هذا المعنى ويحلونه منزلة عالية من التجلة والاكرام روى الوليد بن يزيد الاموى قال له يوماً وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه ياأمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروى لاكثر منهم ممن تعترف انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثاً الا ميزت القديم من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ماتحفظ من الشعر قال : كثير ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام قال : سأمتحنك فى هذا ثم أمره بالانشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وكل به من استحلفه ان يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم ونوادره كثيرة

وكان الأصمعي المتوفى سنة ٢١٨ أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة سمعت الاصمعي يقول . احفظ ستة عشر الف أرجوزة وقال اسحق الموصلي : لم أر الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر ابن المثنى فقال له كم كتابك في الخيل فقال الاصمعي مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال له : قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال . لست بيطاراً وانما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للاصمعي قم وافعل أنت ذلك فقام الاصمعي وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يده عليه وأنشد ماقالت العرب فيه الى ان فرغ منه قال أبو حمدون الطيب ابن اسماعيل شهدت ابن أبي الفتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من الف مجلد عن أبي عمر بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير المجلد عشر ورقات

قال أبو نواس . ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال . قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علما من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا فيه الا قطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو

قال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه وستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بايام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبي عمرو قال لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى انه أخذ عن المفضل الضبي دواوين العرب وسمعها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو الشيباني من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة . أملى القراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده

نسخة الا فى كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة . ويقال ان الاصمعى كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل يحفظ نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والنوادر . وكان ابن الاعرابي أحفظ الناس للغات والايام والانساب وقال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن الاعرابى . أمليت قبل أن تجيئنى يا أحمد حمل جمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة والحفظ الي ابن الاعرابي وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابى يقول فى كلمة رواها الاصمعى سمعت من الف اعرابى خلاف ما قاله الاصمعى .

وكان قتادة عالماً نحريراً وأجمع الناس لاشعار العرب وأنسابهم قال ابو عبيدة ما كنا نفقد كل يوم راكباً من ناحية بنى أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس . وكان ابن الكلبى النسابة واسع الرواية ومن أعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت مالم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد كان لى عم يعاتبنى على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت انلا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته فى ثلاثه أيام وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفى سنة ٢٠٤

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم قال الجاحظ لم يكن فى الارض خارجى ولا جاغى اعلم بجميع العلوم منه ومع انه كان يلحن ويخطىء اذا قرأ القرآن واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه واذا تحدث او قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يري رأي الخوارج ولذلك كثر الطاعنون فى نسبه ومشربه ومذهبه وتوفى سنه ٢٠٩

كان أبو المحاسن الرؤياني المتوفي سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل فى أيامه يقول :لو احترقت كتب الشافعى لأمليتها من خاطرى . وقال ابو بكر النحوى لما قدم الحسن بن سهل العراق قال : أحب ان أجمع قوماً من أهل الادب فأحضر أبا عبيدة والاصمعي ونصر بن على الجهضمى وحضرت معهم وأفضنا مرة فى ذكر الحفاظ فذكرنا الزهرى وقتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها

الامير فى ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه فالتفت الاصمعى وقال انما يريدنى بهذا القول أيها الامير والامر فى ذلك على ماحكى وأنا أقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع — وكان نظر قبل أن يلتفت اليهم فى رقاع بين يديه للناس فى حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة — وأنا أعيد ما فيها وماوقع به الامير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع . قال الاصمعى سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر فى نيف وأربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن على فقال أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الاصمعى .

ومالى وتعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طافحة بها وانما يكفى منها التمثيل والقليل يغنى . ولقائل ان هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً فى القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتى فى نقض هذا الا وقوع أمثال أمثاله فى كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا فى اثباته . ولقد كان الغرب فى هذه المزية كالشرق اذ قد حذا المغاربة فى حضارتهم وعلومهم حذو المشارقة . فقد كان ابن عبدون أحد فحول شعراء الاندلس وكتابها مستكثراً من الحفظ قال الوزير أبو بكر بن زهر : بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل شيخ أمرته أن يكتب لى كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : أين الأصل الذى كتبت عنه لاقابل معك به قال : ماأتيت به معى فبينا أنا معه فى ذلك اذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان وقال لى : يابنى استأذن لى على الوزير أبى مروان فقلت له: هو نائم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عنى ساعة وقال : ماهذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له : ماسؤالك عنه فقال : أحب أن أعرف اسمه فانى كنت أعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغانى فقال : الى أين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على

قالبه فقال : وما لكاتبك لايكتب قلت : طلبت منه الاصل الذى يكتب منه لاعارض به هذه الأوراق فقال : لم أجىء به معى فقال : يابنى خذ كراريسك وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال يابنى أمسك على قال : فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا وفاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه ويقول : يامولاى اعذرنى فوالله ماأعلمنى هذا الخلاف الا الساعة وجعل يسبنى والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفنى وأبى يقول : هبه ماعرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه ودخلا به فتحدثا طويلا ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التى يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لاترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لابى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم قال لى : اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها فى علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغانى — رواها المراكشى

وروى أيضاً قصة تشبهها قال انه لزم أبا جعفر الحميرى آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بادب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه أدرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لى ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قرئت على أو أكثرها فالقيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها فقال لى . ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصل اصح من الاصل الذى كتبت منه فقلت له : أين هو فقال لى عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت : ما على يمينى الا الاستاذ فقال لى : هو أصلى وباملائه كتبت كان يملى على من حفظه فجعلت

اتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال : فيما انتما فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال : بعيد أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً

ومن نظر فيما أثر عن الاندلسيين وجدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت فى الاستقصاء ان من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد الغرب فى البحر باسطوله الغريق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير ازيد على مائة فائدة

وقيل إن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرحل من أئمة الشافعية حفظ المفصل فى مائة يوم ويوم والمقامات الحريرية فى خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل فى جمعة واحدة

وذكر المقريزى عن حكايات أهل الاندلس فى الحفظ ان الاديب الاوحد حافظ اشبيلية بل الاندلس فى عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره فى الرواية للاشعار والاخبار قال ابن سعيد : اخبرنى من أثق به انه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشبيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك من أول الليل فقال لهم ان شئتم تخبرونى أجبتكم فقالوا له بسم الله انا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أى قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل الى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلى يأرق) وسماره قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله أدباء ينظرون فى كتب منها ديوان ذى الرمة فمد الهيثم يده الى الديوان المذكور فمنه أحد الادباء فقال . يا أبا عمران اواجب أن يمنعه منى وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فاكذبته الجماعة فقال اسمعونى ، وامسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية فى سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن بن سعيد . عهدى به فى اشبيلية يملى على أحد

الطلبة شعراً وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا كل ذلك ارتجالا .

قال ابن خلكان: كان ابو الفرج الاصبهانى صاحب كتاب الاغانى يحفظ من الشعر والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ار فقط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والسيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك وذكر صاحب الصبح المنبى ان العلم الفرد فى قوة الحافظة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة

قال ابو عمر الطلمنكى دخلت مرسية فتشبث بى أهلها يسمعون على الغريب المصنف فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابى فأتونى برجل أعمى يعرف بابن سيدة (وهو صاحب المخصص فى اللغة الذى طبع مؤخراً) فقرأه على من أوله الى آخره فعجبت من حفظه . ولقد لازم ثعلب بن الاعرابى فما رآه نظر فى كتاب . وأخبار الاصمعى فى الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك خلف الاحمر والكلبى وعبيد ودعبل . وكان ابو تمام لا يلحق فى محفوظاته وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . قال ابو الحسن محمد بن على العلوى كان المتنبى يلازم الوارقين فاخبرنى وزان كان يجلس اليه قال مارأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقى (المتنبى) قلت له . كيف قال اليوم كان عندى وقد أحضر رجل كتابا من كتب الاصمعى يكون نحوا من ثلاثين ورقة ليبعه فأخذه فنظر اليه طويلا فقال له الرجل أريد بيعه وقد قطعتنى عن ذلك فان كنت قد حفظته فى هذه المدة فمالى عليك قال . أهب لك الكتاب قال . فأخذته من يده فأقبل بهذه على الى آخره ثم استسلمه فجعله فى كمه وقام فتعلق به صاحبه طالباً بماله فقال ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لى قال . فنعناه منه وقلنا . أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه . والامثلة كثيرة فى هذا الباب والله أعلم

الانشاء والمنشؤن[1]

اذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا بأهل القرن الأول للاسلام ، نرى على رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، فانه سيد البلغاء على الاطلاق ، وواضع بنيان البيان العربي ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام ، ونهج البلاغة (٢) الذي جمعه الشريف الرضي من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد . وقد عد كثير من الصحابة أئمة في الكتابة والخطابة (راجع « اعجاز القرآن » للباقلاني و « الاتقان » و « المزهر » للسيوطي)

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لان التدوين لم يحدث في الامة العربية الا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وكانت العرب تعتمد على ذاكرتها ومحفوظها ورواياتها المتسلسلة . قال الرقاشي : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره . ومعظم الذي أبقته الايام من أدب العرب لم يبرح محفوظاً في الخزائن لم يطبع وأكثره محفوظ في جامعات أوروبا ودور كتبها .

ختم القرن الاول بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فان رسائله الموجزة وخطبه الفراء التي نقلها ابن سعد في « الطبقات الكبير » وابن الجوزي في « مناقبه » ، آية في البلاغة ، وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه في الادارة والسياسة على قلتها ، تربي فيمن يتدبرها ملكة الانشاء وتقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف الثقفي وقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان . وهذان الاخيران من

---

(١) نشرت أولا باللغة الافرنسية في مجلة التعليم Bulletin de l'enseignement التي تصدر في بيروت وفي جريدة البلاغ المصرية بتاريخ ١٢ و١٣ و ١٥ و١٧ جمادى الاولى ١٣٤٣ (١٩٢٤)

(٢) جميع الكتب الواردة أسماؤها في هذا المبحث مما طالعناه وتدارسناه وحكمنا عليه بأنفسنا .

خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهما من كتاب «الكامل» للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضويين والصداميين والشيوعيين فى الاسلام.

جاء القرن الثانى وقد نبغ فى أوله عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وهو النهاية فى البلاغة والفصاحة ، اختط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبدالله بن المقفع الذى أسلست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة فى باب التكلف ، بل كان فى « اليتيمة » وسائر ماقاضت به قريحته من رسائلها ابتداء كما كان فى ترجماته « ككليلة ودمنة » طبقة عالية فى البلاغة . ولو عمر ابن المقفع (عاش ستاً وثلاثين سنة) لابقى لنا أمثلة فى البيان ، يتخرج بها طلاب الادب من العرب ، على غابر الحقب . ونبغ فى هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذى وصلنا من رسائله نابغة فى علمه وأدبه ، وناهيك بمن كان الجاحظ ينوه به ، وينقل عنه فى كتبه . وكان كثيراً مايؤلف الكتاب وينسبه لسهل بن هارون فيجمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكتابة سهل من السهل الممتنع ، لاحوشى فيها ولا مبتذل ، أو كما قال الجاحظ فى الكتاب « انهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » ومن خطباء هذا القرن داود بن على وشبيب بن شيبة ومن كتابه اسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب « الادب والمروءة » وكلامه رشيق دقيق مستفاد فى الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله ابن المقفع وعمارة بن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن أبى شيخ وسالم بن عبدالله ومسعدة والهزبر وعبدالجبار ابن عدى وأحمد بن عدى وأحمد بن يوسف . قال صاحب « الفهرست » ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبدالملك ولم يصل الينا من كلام هؤلاء الجهابذة شىء يذكر اللهم إلا ماعرف من كلام ابن المقفع وأحمد ابن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم إلا نتفاً قليلة لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد

على الله المتوفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والنثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة العذراء فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة » التى نشرناها فى « رسائل البلغاء »

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذى رزق الاجادة فى كل ما كتب وهو رب البديهة فى أفكاره ومظاهر علمه وتقريره . ولم يعهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة فى هذا القالب الفتان ، الذى يظهرها فيه غير متكلف ولا متعسف . وكلماته كلما كررتها حلت وبقدر ماتتلوها تتجلى لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها ، وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملكه ناصية اللغة وبراعته فى استعمال الألفاظ فى أماكنها وربما تساهل فأورد ألفاظاً عامية فى معرض كلامه لينقل الافكار بحالتها . ولم يكد يعهد مثله فى المجودين من المؤلفين من يريك ببيانه الباطل حقاً ، والحق باطلا ، يقول الشيء ونقيضه . ويقنعك فى الأول حتى لاتظنك تقنع بعد بكلام ، ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ماأصاب فى الاولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التى أبقتها الايام للمكتبة العربية ذخراً وفخراً ، تشهد العجب من تفننه وإبداعه ، وتدرك كيف تستجيب له المعانى ، وتنقاد الألفاظ برشاقتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل والنوادر أحياناً لئلا يمل مطالعه هكذا تراه فى « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمحسود » وغيرها من رسائله وهى بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته وممن يجىء بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الاخبار الطوال » « وأبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة بالنفس ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل فى أساليب العرب قال أبو حيان التوحيدى والذى أقول وأعتقده وآخذ به وأساهم عليه انى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر مايستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى

وثلث بأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبة .

ومما امتاز به هذا القرن ان علوم الاوائل التي بدىء بترجمتها في منتصف القرن الاول في دمشق بمعرفة خالد بن يزيد الاموي وعني بها عمر بن عبد العزيز أواخره ، قد زادت العناية بها في بغداد على عهد المنصور العباسي ، ثم بلغت أشدها في زمن المأمون . وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحاً جديداً ، فترجم اليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ، فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها به . وهذا أول تأثير من آداب الامم الاخرى أصاب اللغة العربية فأصبحت لغة علم وصناعة ، بعدأن كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو في الحقيقة العصر الذهبي في الادب والكتابة والعلم وسائر مقومات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الكاتب هو من أوائل البلغاء ، وقد أورد بعض رسائله الصولي في كتاب « الاوراق » المخطوط وأورد له ابن طيفور صاحب « كتاب بغداد » المطبوع نموذجات من رسائله ، وفي كتب التراجم المطولة شيء عن كتاباته المسجعة على مثال السجع الذي يقع في كلام أئمة البلاغة في القرن الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتبه . والكتاب المجودون في هذا القرن كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون « وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعاني » وصدق عليه ماقاله الرشيد في البلاغة « البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » . وأبو علي الدامغاني الوزير وأبو الفتح البستي « صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس النفيس البديع التأسيس »

ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثاني الجاحظ بعلمه وجودة انشائه وتأثيره ، وفي كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » و « مختلف « تأويل الحديث » و « الاشربة » و « المعارف » و « عيون الاخبار » و « أدب الكاتب » مايدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوقاً ويعد من كتاب الدرجة الأولى في القرن الرابع أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (٣٤٠) بغدادي الاصل انتقل أبوه الى مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية

وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذي نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن العقبى » وهى عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية فى البلاغة ومنهم أبو بكر الصولى (٣٣٥) صاحب كتاب « الاوراق » و « أدب الكتاب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب « العقد الفريد » وجعفر بن قدامة ابن زياد الكاتب (٣١٩) . وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفضالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بنى بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلا من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بدىء الشعر بملك أى امرىء القيس وختم بملك أى أبى فراس الحمدانى . وما قيل فى ابن العميد يقال فى الصاحب بن عباد (٣٨٧) فهو أيضاً ممن تناغى بالجناس . واكثر من الاسجاع وكان يقول . كتاب العصر أربعة . الاستاذ الرئيس يعنى ابن العميد . والاستاذ أبو القاسم يعنى عبد العزيز بن يوسف . وأبو اسحق يعنى الصابى ولو شئت لذكرت الرابع يعنى نفسه

ويجىء مع هذه الطبقة ابو بكر الخوارزمى (٣٨٣) وكان يميل الى طريقة ابن العميد فى الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها . وقلما تفوته . وأما بديع الزمان الهمذانى (٣٩٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه سار مع الطبع أكثر من الخوارزمى وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع . واذا استعملها ففى مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود الى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابى » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس فى « صبح الاعشى » — قد أفرغ فى قالب من السجع البديع المستملح وقد يتخلى عنه فى بعض التقاليد والعهود ، ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

وممن نبغ فى ذاك القرن أبو الفرج الببغا وعبد الله بن عمرو الفياض كاتب

سيف الدوله ونديمه وأبو القاسم على الاسكافى النيسابورى وكان من علو الرتبة فى النثر وانحطاطها فى النظم كالجاحظ . وعلى بن هند صاحب « الكلم الروحانية » ويحيى بن عدى صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستى (٣٥٤) صاحب « روضة العقلاء » والحاتمى صاحب « الرسالة الحاتمية » التى شرح فيها ماجرى بينه وبين أبى الطيب المتنبى من اظهار سرقاته وابانة عيوب شعره والقاضى التنوخى (٣٨٤) صاحب « النشوا » و « الفرج بعد الشدة » وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب « نقد الشعر » و « كتاب الخراج » وابن نباتة صاحب « الخطب » المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفى والمقتدر وابو منصور البغوى (٧٥) ورأس أدباء هذا القرن ابو العلاء المعرى والشعر غالب عليه وكتابته مصنعة فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن « رسالة الغفران » التى كتبها رداً على رسالة بن القارح وكلاهما مطبوع اشبهت رواية دانتى الشاعر الايطالى La divine comedie وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرة كان معلماً لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوربا على ان دانتى فى روايته الالهية المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة التى ألفها بين سنتى ١٣٠٠ — ١٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعرى ونسج على منواله فى التصور

وان ما كتبه المعرى على ديوان أبي تمام الطائى وسماه « ذكرى حبيب » وعلى ديوان أبى عبادة البحترى وسماه « عبث الوليد » وما كتبه على ديوان أبى الطيب المتنبى وسماه « معجز احمد » يدل على احاطة المعرى باسرار العربيه وفهم كلام العرب ومراميهم وشدة ملكته فى النقد الادبى . دع فلسفته في « لزومياته » و « دواوينه » فالمعرى فيلسوف لغوى وليس بكاتب . ومنهم على ابن خلف صاحب « مواد البيان » الذى نقل القلقشندى فى صبح الاعشى جزءاً مهما منه .

*
* *

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه ومن أشهرهم الذين تركت الايام لنا شيئاً من كتاباتهم الأمير قابوس بن وشكمير (٤٠٣) صاحب « كمال البلاغة » فان كتاباته هي الموسيقى برتها ، والشعر الفتان ، ولكن بدون قافية وروى ، الا ان الاسجاع غالبة عليه ، مستحكمة في حواشي كلامه ، آخذة بجماع أدبه خلافاً للثعالبي (٤٢٩) سيد كتاب هذا العصر ، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والآداب ، فان مقدمة كتابه « فقه اللغة » طبقة عالية في الكتابة المرسلة في عصره وبعده ولو تخلى عن السجع في « يتيمة الدهر » التي ترجم فيها أدباء عصره على نحو ما تركه في « المضاف والمنسوب » « ولطائف المعارف » وغيرهما من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء . ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب « العمدة » أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد) وكان الناس في الدهر القديم يعتمدون على أربعة كتب لاتقان فن الأدب . « البيان والتبيين » للجاحظ و « أدب الكاتب » لابن قتيبة و« الكامل » للمبرد و« الامالي » لابي علي القالي . ومن هذه الكتب الاربعة ماشرح ومنها ما اختصر ومنها ما انتقد شرح « أدب الكاتب » لابن قتيبة بن السيد البطليوسي وممن انتقدوا « آمالي القالي » أبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » في جزء لا يزال مخطوطاً سماه « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه »

وممن توفي على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدي وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها في كتاب « المقابسات » و « رسالة الصديق والصداقة » و « الاشارات الالهية » . وذكر الثعالبي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وابو احمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي وأبو القاسم علي ابن القاسم القاشاني وأورد من كلامهم نموذجات لطيفة . ويعد في الطبقة الاولى من المؤلفين والكتاب المجيدين ابو الفرج الاصفهاني صاحب « الاغاني » وأبو الحسن علي بن عبد العزيز صاحب كتاب « الوساطة » بين المتنبي وخصومه والامير عبد الله الميكالي فانه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو النصر العتبي واضع « تاريخ بن سبكتكين » المعروف باليميني وهو التاريخ

المسجع البديع ويعد مؤلفه من أكبر المنشئين

ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن ناقيا (٤٨٥) والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العبيدى بمصر (وكانت له قوة على الترسل يكتب كما يشاء) وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب السجع وكان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية غضاً طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبياناً ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، » وممن أثرت بعض رسائله فى هذا القرن هلال بن المحسن الصابى (٤٤٨) حفيد أبى اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب « أخبار الوزراء » ومن المجيدين فى الانشاء وأن عدهم الناس فى طبقة الحكماء أحمد بن مسكويه (٤٢١) مؤلف « تهذيب الاخلاق » و « الفوز الاصغر » و « تجارب الأمم » فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع ومنهم أبو طاهر محمد بن حيدر (٥١٧) صاحب « قانون البلاغة » وهو لم يطبع

وفى هذا العصر نبغ فى الاندلس الوزير ابن زيدون (٤٦٣) فى النظم والنثر و « رسالته » على لسان ولادة بنت المستكفى بالله أديبة عصرها من المرقص المطرب . ومثل ذلك يقال فى الوزير ابن حزم الاندلسى (٤٥٦) فانه من اكتب العلماء فى عصره ، ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه . وناهيك بكتابه « طوق الحمامة » و « رسالته فى الاخلاق » دليلا على أدبه الراقى ، ومثالا من أنشاء عصره الذى أشبه فى الادب عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا

ونشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الاندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى الوزارة . والغالب ان الكاتب المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء . مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القاسم وأبى الاصبغ وابنه أبو عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة « وكان هذا على طريقة قدماء الكتاب من اتيان جزل الالفاظ ، وصحيح المعانى ، من غير التفات الى الاسجاع التى أخذها متأخرو الكتاب اللهم الا ماجاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الافطس وابن سالم

ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن اللبانة وابن عبد البر والفرضى وابن سعيد المؤرخ وابن حيان وابن القوطية وأبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » و « المسالك والممالك » وابن الطفيل صاحب « رسالة حى بن يقظان » وفيها اشارات لمذهب النشوء والارتقاء. ومنهم البطليوسى وابن تومار وابن هود والنحلى والاشبونى والقسطلى وابن لبون وابن رزين والنمرى والسرقسطى وابن القلاس والقصاعى والبهارى والحجارى والدانى والبلنسى والطليطلى وغيرهم وما منهم الا منشىء مجود ومؤلف جزل العبارة رشيق الالفاظ. ولا غرو فان الاندلس أخرجت للادب رجالا عظاماً ، تشم من مكتوباتهم أريج الغرب ، وقد جمع أحد علماء المشرقيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأديب وفقيه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة. وترجم الفتح بن خاقان (٥٣٥) صاحب « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لبعض أولئك الادباء بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم ولغيرهم ابن بسام فى « الذخيرة » واشتهر بالوزارة من الكتاب المجودين فى بغداد الوزير على بن عيسى والوزير أبو الحسن ابن الفرات. ولعلى بن عيسى (مذهب فى الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات) ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات الى غيرهم من الكتاب النابهين والخاملين وربما كان فى الخاملين من هم أعلى كعباً من النابهين

وممن اشتهر بنثره فى هذا العصر الحريرى (٥١٠) صاحب « المقامات » و « درة الغواص » . وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضاً من النثر المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالى (٥٠٥) لاخترنا كتابة الغزالى ولا سيما فى الجزء الثالث من « الاحياء » ورسائله التى أبان فيها عن طبعه خصوصاً « التفرقة بين الاسلام والزندقة » و « تهافت الفلاسفة » و « الرد على الباطنية » أو نثر الراغب الاصفهانى فى « الذريعة الى مكارم الشريعة » و « تفصيل النشأتين » و « المحاضرات » أو الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » و « الاحكام السلطانية » . وفى كلام الحريرى مسحة من التعمل قد يصل اليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا وكدهم ويتعملوا فى منثورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريرى رجل مقامات أى

انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل جار الله الزمخشري (٥٣٨) يفوقه باجادة صناعة النثر فسجعاته في « تفسيره » و « المفصل » و « أساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب » و « الكلم النوابغ » و « الفائق » في الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين رشيد الدين الوطواط صاحب « الرسائل » المطبوعة المسجعة محاورات ومرادات والزمخشري أرق بياناً وأوسع علماً . ويعد في كتاب هذا القرن أبو الفتوح ابن الجوزي (٥٩٧) الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب « الاذكياء » و « أخبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شيء بما يطلق عليه الافرنج اسم «Folklore» أي العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير في العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب المفسر . وقد حدثنا التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما في القرون الأولى وضع حكايات أشبه شيء بقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو احداث مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث في شأن مهم للدولة . وقد صنفوا كثيراً في الاسمار والخرافات منها ماعربوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ماابتدعوه ومنهم كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والاسلام ومنهم من ذكر الحبائب المتظرفات أو اكتفى بأخبار العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت في الغرب ، ونقلت الى معظم لغات أوربا ، كما اشتهرت في الشرق العربي ومثل ذلك يقال في قصة السندباد البحري والظاهر وتغريبة بني هلال الى غير ذلك مما لا يعد في الادب الراقي لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

وممن نشأ في هذا القرن ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » فهو أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذي تصدى ابن أبي الحديد المدائني لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » . وسيد المنشئين على التحقيق في هذا العصر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ، فهو حجة المنشئين سواء توسل بالسجع أو تخلى عنه ، مع انه لم يكن يفارقه على الاغلب ، ولو انتهت الينا رسائله كلها لجاءت بضعة مجلدات والقليل المقتبس

منه فى صبح الاعشى «ورسائله» المخطوطة وما نقل له فى «الروضتين» مما تنبسط له النفس ويجىء بعده فى المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهانى فهو سالك طريقته ، ولكنه فى دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب بهجة العلم وان كانت صحيحة وكتاباه « الفتح القسى » « وزبدة النصرة » نموذج أدبه ، وراموز صالح من سجعه وترسله ، وقد نشأ فى عصر القاضى الفاضل والعماد الكاتب ، كاتب هزلى اسمه الوهرانى (ركن الدين ابو عبد الله محمد ٥٨٥) عمل « المنامات والرسائل » المشهورة التى لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضى الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال ابن خلكان فى « وفيات الاعيان » فعمد الى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب «الاعتبار» ذكر فيه قصصاً فى الشجاعة وقعت له ولاسرته أصحاب قلعة شيزر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبيين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة ، ومنهم يحيى بن زيادة الشيبانى انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء وابن الصيرفى صاحب « الاشارة الى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل »

وممن كان فى القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية فى الانشاء محيى الدين ابن عبد الظاهر (٦٩٢) وابنه محمد فتح الدين ويعد الاب والابن من واضعى نظام الانشاء فى عصرهما والعصرين التاليين . وابن عبد الظاهر أضعف فى البلاغة بما ورد له فى صبح الاعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه فى الميلاد وممن عرف بالبراعة فى تصوير البلدان والآثار عبد اللطيف البغدادى الفيلسوف (٦٢٩) فان كتابه « الافادة والاعتبار » شاهد له بانه من خيرة البلغاء فى عصره ومنهم الوزير عبد المحسن ابن حمو (٦٤٣) وبهاء الدين الاربلى والكمال بن العديم (٦٦٦)

وتعد رحلة بن خبير الكنانى الاندلسى (٤١٦) الى الشرق من الادب العالى فقد وصف البلدان فى عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل بن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدرى (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والزركشى (٧٩٤) وابن أبى البركات النجدى (٨٩٥) على ان الجمل

التى أثرت عن بن بطلان فى مطولات الجغرافية ، وكانت رحلته من العراق الى الشام فى النصف الاول من القرن الخامس — تنم عن أدب وفضل ذوق فى وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل فى معجم البلدان ولاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسى أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق وفضل علم وأدب

وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد فى جملة الادب الجيد ما كتبه ياقوت الحموى فان « معجم البلدان » « ومعجم الادباء » من أنفس ما كتب الكاتبون فى هذا القرن كما ان ما كتبه القفطي (٦٤٦) فى « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبى أصيبعة (٦٦٨) فى « طبقات الاطباء » يعد من الادب العالى فى تراجم الناس . ومن هذه الكتب الاربعة التى طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة فى الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبرى « ومروج الذهب » للمسعودى و « الكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبى » و « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء » لحمزة الاصفهانى و « الفخرى » لابن الطقطقى و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافيى العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادى والعمراني وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير العلمية

ومن كتاب القرن الثامن فى مصر والشام بن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الالباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمعة الباكى) والشهاب محمود الحلبى صاحب (حسن التوسل فى معرفة صناعة الترسل) وعلاء الدين بن غانم واحمد الانصارى وابن القيسراني وكمال الدين الزملكانى . ونبغ فى الاندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم يكن له الا (الاحاطة فى أخبار غرناطة) لكفى فى تفوقه فى كتابته وشعره فانه صور

وترجم لهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب المقرى يحوى طرفاً صالحا من نظم لسان الدين ونثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون (٨٠٨) وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . ولم تكد تكتب العلوم الاجتماعية والتاريخية قبل بن خلدون بمثل ذاك اللسان الذى استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الاندلس ، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الاندلس

***

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والاخذ من فن الادب العربى الواسع فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التناغي بالادب والانشاء لأن التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد فى كل قطر عربى يستخدمونه حلية وزينة ، واذ لم يبق فى الحكومات من يقدر الادب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة ، وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وامكان الانتفاع به فى المديح . وان كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

طالع كتاب « عجائب المقدور » فى أخبار تيمور المسجع المجنس و « فاكهة الخلفاء » وكلاهما لابن عربشاه من أهل القرن التاسع وتأملهما وتأمل « تاريخ المتبى » وسجعه تجد حتى فى السجع فروقا وأى فروق . وطالع « مقامات السيوطى » و « مقامات ابن الوردى » وعارضها بمقامات الحريرى وبديع الزمان يتجلى لك الفرق بين النمط العالى على ما يقال فيه والذى دونه بمراحل . واقرأ « ريحانة الالبا » للشهاب الخفاجى ، وطالع سجعه الذى هو أرقى سجع فى القرن العاشر ، تجد بينه وبين نثر ابن بسام فى « الذخيرة » وابن خاقان فى « قلائد العقيان » فرقا

بينا أيضاً ، كما أنك قلما تجد فى الادباء الذين ترجم لهم الخفاجى وكانوا تقدموه وعاصروه فى الشام ومصر والحجاز واليمن والمغرب الاشاعراً . والكتاب قلائل . والأدب العربى كاد يستحيل الى أماديح وأكثره للتزلف من الكبراء وهو ضيق العطن ، مبتذل الديباجة ، فالنثر أسجاع ، تشق على الاسماع ، والنظم قواف لا تألفها الطباع ، والروح منقولة ، والالفاظ من جنس المبتذل مدخولة ، ومعظم المنشئين والمتأدبين يكتبون نمطاً واحداً من عهد أبى اسحق الصابى وأحمد ابن يوسف الى عهد لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون وهما اللذان أثبتا أن للمعانى تأثيراً أعظم من تأثير الألفاظ ، فأتيا بالجديد المبتدع ، وخلص كلامهما من المصنع الغث ، وسارا مع الطبع فى التأليف والوضع

وفى القرن التاسع نشأ القلقشندى (٨٢١) صاحب « صبح الاعشى » وكتابته من السجع على الطريقة الفاضلية المتناسبة مع زمنه ، وقد جمع فى كتابه نموذجات من انشاء العصور السالفة الى عصره ، فكان كتابه معلمة (انسيكلوبذيا) للمنشئين كما كان كتاب (نهاية الارب للنويرى) . وأهل البصر بعيوب الكلام يفضلون على القلقشندى المؤرخ المقريزى وجلال الدين السيوطى . ومن كتاب القرن التاسع محمد بن أبى بكر المخزومى ومحمد بن عبدالدائم وابن حجة الحموى (٨٣٧) وكتابا (خزانة الادب) و (ثمرات الاوراق) لابن حجة مثال التكلف ، ومن اقتصر فى درسه عليهما تخدشت فيه ملكة البيان لامحالة

والقرن الحادى عشر مبدأ قرون الظلمات فى الكتابات فان (نفحة الريحانة) للمحبى صاحب (خلاصة الاثر) فى أعيان القرن الحادى عشر نموذج من نثر ذاك العصر ، ومن ترجم لهم من الادباء وأكثرهم ممن ترجمهم فى (خلاصة الاثر) عنوان أهل جيله وكذلك يقال فى (سلافة العصر) لابن معصوم من أهل ذاك القرن فان سجعه متكلف ، ومن ترجمهم وليسوا من الكتاب قل فيهم النبوغ ، وغاية إجادة المجيد منهم أن ينظم قصيدة غزلية تقع موقع القبول من بعض القلوب ، أو قصيدة يتكسب بها من أرباب المظاهر ، أو يؤلف كلمات مسجوعة متشاكلة هى والشعر ، ومثل ذلك يقال فى كلام الحسن البورينى (١٠٢٤) فى تراجم الاعيان فانه من هذا البحر والقافية . وكان فى أوائل هذا القرن رجل استفاضت شهرته لانه

جمع علوما كثيرة وكان أديباً بارعاً وهو بهاء الدين العاملى (١٠٠٣) صاحب (الكشكول) و (المخلاة) و (أسرار البلاغة) فانه كان زينة عصره فى الادب متفنناً فى تنويع موضوعاته

وما قيل فى المحبى وابن معصوم والبوريني يقال فى الغزى مترجم أهل القرن الحادى عشر والمرادى مترجم علماء القرن الثانى عشر وما أورد هذا لهم من الشعر والنثر فى كتاب (سلك الدرر) وبعضه أثقل من رضوى وأبرد من عضرس وأين هو من السخاوى فى (الضوء اللامع لاهل القرن التاسع) ومثل هـذا قل فى كتاب أهـل القرن الثالث عشر مثل سجع البربر (١٢٢٦) فى (مقاماته) وابن شاشو فى (تراجم أعيان دمشق) فانه غاية ماوصلت اليـه الكتابة من الابتذال والسجع الثقيل على الطبع . ولـكن هذا القرن تجلت فى أواخر نصفه الاول حركة تجدد فاختلط أهل مصر والشام بأهل الغرب ولاسيما مع علماء فرنسا وتخرج بعض أبناء القطرين فى جامعاتها ، فأخذت المترجمات فى العلوم المختلفة على عهد محمد على مؤسس الدولة العلوية المباركة تؤثر تأثيرها المطلوب فى روح الكتابة ، وأخذوا طرفاً من آداب الغربيين ولا سيما الفرنسيون نقلوه الى العربية نقلا ضعيفاً ركيكا وأيقن الدارسون من أبناء مصر والشام ان الآداب العربية خلت فى أرقى عصورها من التمثيل وان لم تخلو من القصص والروايات والحكايات التاريخية والأدبيـة ، ولـكن على صورة مصغرة

ومن المجددين الذين ختم بهم القرن الماضى أحمد فارس الشدياق اللبنانى فانه أقام سنين طويلة فى انجلترا وفرنسا ومالطة والاستانة ونقل للعرب طريقة جديدة فى تآليفه ، وترك أثرا جميلا من نبوغه وتفننه فى أساليبه . وفى كتابه (الساق على الساق) و (الواسطة فى معرفة أحوال مالطة) ومقالاته العلميـة فى جريدة الجوائب التى جمعت فى (كنز الرغائب) و (الجاسوس على القاموس) و (سر الليال) يتجلى للناقد البصـير كيف قلب الافـكار ، وأتى العرب بنمط مبتكر فى التفـكر والبحث ، وفهم الأدب على غير مافهمه أهل عصره ، ومن سلفه من الأعصار

وممن كان فى النصف الثانى من القرن الماضى فى مصر وعد إمام النهضة الحديثة

رفاعة بك الطهطاوى (١٢٩٠) فانه ترجم وألف كثيراً وبه تخرج عشرات من رجال مصر ، وكان السجع يغلب عليه . ومن أدبائهم عبد الله فكرى باشا وهو ملتزم السجع ، ولكنه السجع القصير البعيد عن التكلف فى الجملة ، وكذلك على مبارك باشا (١٣١١) وأهم الرجال الذين أدخلوا الانشاء فى طور جديد ، وحلوه من قيوده الثقيلة التى رسف فيها قروناً ، الشيخ محمد عبده المصرى (١٣٢٢) فانه كان خطيباً مصقعاً وكاتباً بليغاً ، ولم يعهد لرجال الدين كاتب مثله فى القرون الأخيرة ، فكان كما قيل فيه يكتب الشريعة بلسان صاحبها ، تشهد له بذلك (رسالة التوحيد) و (الاسلام والنصرانية) و (رحلته الى ايطاليا) و (درس تفسيره) وقد تخرج به كثيرون من رجال مصر الحديثة ، كما تخرج بصديقه الشيخ طاهر الجزائرى الدمشقى كثير من رجال النهضة فى الشام ، فان هذا أيضاً خلع الثوب القديم البالى فى الانشاء بعد أن لبسه فى أول عهده وأخذ يسير مع الطبع ، تاركاً للجناسات وأنواع البديع جانباً ، تشهد له الكتب الكثيرة التى ألفها فى الشريعة والطبيعة واللغة والآداب . ونشأ فى الشام كتاب عصريون منذ خمسين سنة ومعظمهم ممن تشبعوا باللغات الافرنجية والمبدع منهم قليل ، ولا نذكر انه نشأ فى الشام على عهدها الاخير كاتب مثل ابراهيم المويلحى المصري فى ابداعه ولا سيما الجد في قالب الهزل وكان يقلد الجاحظ فى سرد الحقائق على أسلوب الرياليست ، ونشأ فى الانشاء فى الشام أمثال ابراهيم اليازجى وابراهيم المصور وشكيب ارسلان ويعقوب صروف وغيرهم من المجودين ، وفى مصر أمثال حفنى ناصف وقاسم أمين وابراهيم اللقانى واحمد سمير واضرابهم من الاحياء والاموات فى الاقطار العربية ولو كتب لبعض الكتاب المشهورين فى الشام والعراق أن يحذقوا أدب الغرب كما حذقوا أدب العرب لخدموا الادب كثيرا بيد ان الاجادة المتناهية قليلة ، وعيوب الانشاء تبدو أكثر من عيوب الشعر وفى الثانى يغتفر مالا يغتفر فى الاول ، فقد قال لابروير . أربعة لا يطاق فيها الاعتدال الشعر والموسيقى والخطابة والتصوير

الى اليوم على كثرة اختلاط مصر والشام وتونس والجزائر بأدباء الغرب وأخذهم عنهم لم يكتب اللغة العربية اقتباس التمثيل كما هو الحال فى الغرب وذلك

لان التمثيل عارض فى المدنية العربية ، وإيجاد المفقود أصعب من اصلاح الموجود ولكن الخروج بالكتابة عن روحها العتيقة مع الباسها الحلة العربية القديمة التى كانت لها فى القرنين الثانى والثالث مثلا والرغبة فى القصص والنوادر آخذة بالترقى ، ومعظم قصصنا ونوادرنا ورواياتنا التشخيصية محتذاة من الافرنجية أو منقولة عنها بالحرف ، وهذا من أبشع ضروب الاقتباس ، ولعله لا يطول الامر حتى ينشأ للأمة العربية روائيون وقصصيون وكتاب فاجعات وماس على الصورة التى جرت عليها أمم الحضارة الحديثة فيعود أرباب الاقلام الى الابداع والاختراع ويسير المنشئون بروح الامة يعالجونها بما يوائمها فما ينفع من أدب الغرب قد لاينفع ولا يلتئم مع حالة ابن المشرق .

***

أكتب هذا بمناسبة سفر بديع ظهر حديثا [1] فى عالم الادب العربى فأدخل السرور على قلوب أنصار التجدد واعنى به كتاب « مطالعات فى الكتب والحياة » لكاتب من أفذاذ الكتاب بمصر الاستاذ العقاد ومؤلفه بحاثة نقادة فى الادب والشعر على مثال أدباء الغرب . نشر قبل سنين كتاب (الفصول) فأجاد والآن جاء يعيد وأهل حلقته ، تلك الطريقة وينشر على الادب جملة فضله الرائع ، الذى جمع فيه بين أجمل القديم وأنفع الحديث . ومن حسنت ملكته وصحت قريحته كان جديراً بأن يختار الاطايب فى كل ما يعرض له

تقرأ الاستاذ العقاد فتظنك تقرأ نقاداً من نقاد فرنسا أمثال : فاجية ، ولمتر وبيدو ، وبريستون ولكن بديباجة عربية تشبه اللغة يوم عزها ، ويدهشك بسلامة ذوقه ، وسلاسة تعبيره ، ورصف جمله ، ورنة تراكيبه ، وقلما يكتب ذلك الا لافراد فى كل عصر ، فقد كانت الطبقة السابقة التى حاولت ادخال هذه الطريقة فى اللغة الى جانب القصور ، لضعف ملكاتها من اللغة التى حاولت تبديل قيافتها ، وكثيراً ما كانت ضعيفة أيضاً فى اللغة التى حاولت الاخذ عن بنيها تفهم الالفاظ ولكنها عن المعانى بمعزل . بيد ان هذا النابغة رزق السعادتين ،

---

(١) « مطالعات فى الكتب والحياة » للاستاذ عباس محمود العقاد طبع بالمطبعة التجارية الكبرى فى مصر سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٤ ص ٣١٠

فأتقن الادب الافرنجى إتقانه للعربى ، وجاءمنه جهبذ بحاثة ، ذو أسلوب مبتكر لاينكره المنصفون من الغالين بتمجيد القديم ، ويغتبط به المجددون أية غبطة

منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وأنا أنظر فى الكتب العصرية التى تخرجها المطابع العربية فى الشرق والغرب ، فلم أكد أقرأ كتاباً فى الادب لعاصر تأليفاً كان أم ترجمة إلا وتراءى لى كثرة تفريطه فى تأليفه ، وقلما رأيت إبداعا الا فى بعض التآليف أمثال « حديث عيسى بن هشام» للمويلحى الصغير و (النظرات) و (العبرات) للمنفلوطي و (ليالى سطيح) لحافظ وبضعة كتب أخرى ليست على خاطرى . رجوت لها الخلود ، وباقيها ومنه المسجع أوالممسوخ أو المسلوخ أو المنسوخ ، لا استحى أن اقول انها تتساقط كما يتساقط ورق الشجر فى الخريف ، وتضيع كما تضيع مقالات الصحف اليومية بعد صدورها بساعات معدودة

لم يبرح النزاع عندنا بين أنصار الجديد والقديم على أتمه ، ولكن التطور يعمل عمله ، رغم احتجاج المحتجين ، وصياح الصائحين ، والانتقال محسوس فى الادب ، كما هو محسوس فى كل أطوار الحياة عندنا ، وأنت اليوم اذاقرأت صفحة من (مقامات اليازجى) أو رسالة من (رسائل الاحدب) أو جملا من مصطفى نجيب وحمزة فتح الله على تلميذ شدا شيئاً من الادب يضحك مما تسمعه ، ويقول لك هذا كلام يضعف اللغة ويذهب بهجتها وألفاظه أكثر من معانيه . ولكنك اذا تلوت عليه صفحات من السيد العقاد تطربه نغمته ، وتعجبه ديباجته ، فتستغرق معه ساعات فى المطالعة لاتمل ، وكلما أتممت فصلا وددت لو طال أكثر. فمقالات العقاد فى تحليل روح المعرى وحياة المتنبى وأدبه دلت عن أدب بارع ونفس طويل ، وخواطره فى ماكس نوردو وأناتول فرانس والشعر ومزاياه والطبع والتقليد وعبقرية الجمال والتشاؤم وأدوار العمر كل ذلك مما يحمل للقارىء علما طريفاً وتليداً ، ونبوغا وعبقرية وتجديداً ، يروقك باسلوبه فتستفيد من الفكرة ومن القوالب البديعة التى ظهرت فيه

طلق الاستاذ العقاد الاسجاع والجناس وأنواع البديع ، وجاءنا بانشاء فيه طلاوة الحديث بسبكه ومعناه ، وجلالة القديم ببيانه ، وربما تلوت له فصلا برمته

وليس فيه سجعة أو معنى مكرر ، تراه يكتفي فى تصويره بعشرة الفاظ ، وكان غيره يحشر له العشرين والثلاثين لفظة ، واذا عمد الى استعمال الفصيح الذى لم يبتذل ، فانه يكون فى كلامه بمقدار الخال فى صفحة الوجه الجميل أما التراكيب فتظن نفسك وأنت تقرأ كلامه أمام (أبدى بدوى وعلى طباع أفصح عربى)

وان أهل هذه الطبقة العالية ، قد أكذبوا القائلين بأن العربية لا يتسع صدرها للمعانى الجليلة ، وان العرب عنوا بالالفاظ أكثر من المعانى ، وما الالفاظ الا القوالب فقد قال بن جنى فى الخصائص ، رداً على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ وأغفالها المعانى . ان العرب كما تعنى بالفاظها ، وتصلحها وتهذبها وتداعبها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالاشجاع التى تلزمها وتكلف استمرارها ، فان المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً فى نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً الى اظهار اغراضها ومرئيها ، أصلحوها وبالغوا فى تجييدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها فى السمع وأذهب فى الدلالة على القصد . فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا تريد ان العناية اذ ذاك انما هى بالالفاظ بل هى عندهم خدمة منهم للمعانى ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه ، وتكوينه وتقديسه وانما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعى ، وعليه جوازه بما يعطر نشره . . . وقال عبد القاهر الجرجانى فى (دلائل الاعجاز) لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه . ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك ، من معناه الى قلبك وقولهم يدخل فى الاذن بلا إذن ، فهذا مما لا يشك العاقل فى انه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى وانه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له فى اللغة

قلنا وهذا ما جعله المجودون من كتابنا المعاصرين نصب أعينهم فلم يقنعوا بالقشور بل اهتموا باللباب ، وعنوا بالقوالب وما تحويه ، وإذ قد أرهفوا أقلامهم لنقد الكاتبين المتوسطين كانوا أحرياء بأن يظهروا كتاباتهم خالية من الشوائب اللفظية والمعنوية وأدبنا فى كل عصر ما خلا من نقاد ، يوازنون بين كلام المبرزين فى

منثورهم ومنظومهم ، ينوهون بالكلام الشريف ، ويرذلون الساقط الوضيع ومعولهم فى أحكامهم على قوانين البلغاء والذوق السليم

لو لم تغفل عين العناية بعد القرن الرابع للهجرة عن الاقتباس عن الامم الاخرى ولو لم يكتف أهل الادب والعلوم بما حصل لهم ونفحوه وأضافوه حتى القرن الثالث عشر أى لولم نقف بادبنا عند حد ما عرفنا تسعة قرون ، لكنا اليوم كفرنسا بالشعر والادب نفهم منهاما يفهمه الفرنسيس ، بل سائر أمم الغرب الراقي من الشعوب الانجلوسكسونية واللاتينية والسلافية ، ولكنا ننال جوائز نوبل فى الادب على نحوما يأخذها الهولانديون والسويديون على الاقل ونحن معاشر العرب بعددنا نحو عشرة أضعاف كل أمة من تلك الامم الصغيرة الممدنة .

وانا نرى هذا التجدد محسوساً فى الشعر كما هو محسوس فى النثر ، فقد جاء محمود سامى البارودى أواخر القرن الماضى فى شعره عربياً قحاً ، وتلاه اسماعيل صبرى بشىء من أدب العصر فحل قيداً من قيوده ، وجاء بعدهما حافظ ابراهيم بشعره الاجتماعى المرقص ففك قيود سابقيه ، وسيجىء صاحب السلسلة الرابعة بما ليس الآن في الحسبان والتجدد والنشوء الاجتماعى . لاجرم ان للصحف والمجلات اليوم يداً طولى فى هذا التطور فانها تنقل الينا كل يوم شيئاً جديداً عن آداب الامم الاخرى وكلما تطورت مدنيتنا بطور العصر فالادب أول ما يتطور فينا يعلم ذلك كل من تصفح سفراً نشر قبل خمسين سنة ، وكتابا نشر اليوم ، ومن تلا الصحف لعهدنا وعارضها بما كان يكتب من نوعها أوائل عهد الصحافة العربية فى مصر والشام وتونس ، يدرك الخطوات السريعة التى خطوناها نحو المدنية ، وجددناها على مايوافق اقليمنا وطباعنا ، والبسناها حلة من حللنا الشرقية البديعة . وأساتذة هذا الشأن بمصر اليوم العقاد وطه حسين والمازني وعبد القادر حمزة وغيرهم من حملة الاقلام الذين يقودون قراءهم الى سوق عكاظ جديد وفى الشاميين كتاب من هذه الطبقة يطرسون على آثار كتاب مصر ولا نعلم في العراق وتونس والجزائر أناساً يصدق عليهم تعريف المجددين فى الانشاء .

ربما يتساءل القارىء ، وقد بلغ به البحث الى هذه الجملة ، وهل كان النساء ياترى بعيدات عن هذه الحركة الادبية على حين لم يكن فى بغداد ولا الاندلس ولا فى صدر الاسلام بعيدات عنها ؟ (راجع الجزء الخاص بالصحابيات من طبقات بن سعد الكبرى) و (بلاغات النساء) لابن طيفور وأخبار الاندلسيات فى (نفح الطيب) فالجواب انهن شاركن بقدر اللزوم ، ولا يزال عددهن ينمو بنمو روح العلم فيهن ، فقديماً رأينا المحدثات والواعظات والمتفقهات والاديبات واليوم نرى الكاتبات والاديبات والباحثات والخطيبات فقد افتخرت مصر بنبوغ السيدة عائشة عصمت التيمورية شقيقة الاستاذ احمد تيمور باشا العالم المشهور ، ولها ديوان شعر سلس رقيق ، وجاءت بعدها السيدة ملك ناصف الملقبة بباحثة البادية وهى ابنة حفنى ناصف شيخ الأدب فى عصره وصاحبة كتاب (النسائيات) وكانت كاتبة مبدعة فعاجلتها المنية وكان يرجى منها ان تقلب حياة المرأة المصرية رأساً على عقب. وقد حلت الكاتبة المشهورة السيدة مارى زيادة الملقبة بمى حياة ملك ناصف فى سفر بديع دل على علو كعبها فى الأدب وتحليل النفوس . وفى الشام ومصر اليوم زمرة من الكاتبات المجيدات المتشبعات بالآداب الغربية لاتحضرنى الآن أسماؤهن باجمعهن . والنساء عندنا فى دور الفهم والتطور والاقتباس .

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة قبل ان نرسل سلاما طيباً الى كتابنا الشاميين فى المهاجر ولا سيما فى الامريكيتين فأنهم تشبعوا بالأدب الافرنجى فأخذوا يكتبون لقومهم هنا وهناك بلسان جديد من التجديد . بل أكثر من التجدد ، واشتهر منهم أمين الريحانى صاحب (الريحانيات) ولا ملوك العرب وغيرهما من تآليفه وجبران خليل جبران وهو كاتب ومصور ولكن تصوير الكلام بالحروف يتعاصى عليه أحياناً أكثر من التصوير بالقلم والخطوط على مايظهر ، فيبدو الغموض فى تضاعيف سطوره ومثال من ذلك كتابه (الأجنحة المتكسرة) ولكل منهما قراء ومعجبون بادبهما ولو كتب لهما ان يرزقا حظاً من البيان العربي يوازى حظهما من الآداب الانجليزية اذاً لجاء من شعرهما المنثور ، وخيالهما اللطيف ، مادة للمجددين فى أدب لغتنا . وهناك بضعة من الكتاب نزلوا ممالك الجنوب

والشمال من أميركا فكتبوا وعلموا قومهم ولم يكتب لنا الاطلاع على عامة ماخطته أناملهم ، وعمقته أفكارهم

ولا بأس من التصريح هنا برأى لنا خاص فى الكتاب الاقدمين منهم والمحدثين وربما كان فى حملة الاقلام من لا يساهمنا هذا الرأي ، ويعدون حكمنا من باب التهجم على من عرفوا كلهم شهد الله بالفضل واغنوا غناءهم فى جانب الآداب . ولكن هو الرأى يصدره الصغير امام الكبير ولا اثم عليه ولا حرج . نريد ان نقول ان عمر الطالب يقصر عن استيعاب جميع ما كتبه المنشئون فى هذه الملة تصفحاً ودرساً . فالأولى ان يختار الزبدة ويأخذ الاهم فالاهم مما يعينه على تحسين ملكته فى البيان ، وما نخاله من حيث الاسلوب الا مخترع طريقته بنفسه ، متى تمت أدواته اللازمة ، وأتقن مالا غنية عنه من نحو اللغة وصرفها وبيانها وبلاغتها . والاولى الاقتصار فى الدراسة على من أجمعت الامة على تبريزهم فى هذه الصناعة كعمرو ابن بحر الجاحظ وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وأحمد ابن يوسف واضرابهم ممن كتبوا مع طبعهم غير متعملين . وما قيل فى الكتاب يقال فى الشعراء جاهليهم ومخضرميهم ومولديهم وهم بحمد الله كثيرون جداً والأولى الاقتصار على بضعة من الشهود لهم بالاجادة المتناهية . أما أدب أهل العصور المتأخرة فان الطالب يقرأه حب الاطلاع أو لاخذ مادة عن تاريخ الادب فى عصورهم وبعبارة أوجز يعتمد فى البيان على القدماء من قبل الاسلام الى أواخر القرن الرابع كما يأخذ العلوم عن المحدثين من أمم الحضارة وغيرهم

لاجرم ان الادب العربى قد اتسع أمامه مجال التجدد الآن وما حدث فيه من التطور منذ نحو مائة سنة فكاد يلحقه بآداب الغربيين إلا قليلا ، دليل على قابلية هذه اللغة — بما فيها من الفصيح والمترادف والقلب والابدال ومالا تأباه من التصريف والاشتقاق والوضع والدلالة والمجاز والكناية — للتجدد فى كل عصر وبرهان على مرونتها للاخذ بالاصلح على قاعدة الانتخاب الطبعى مع مراعاة قواعدها وروابطها التى استقرت باستقرار القرآن الكريم

ولذلك ساغ لنا ان نقول : ان لغة القرآن صالحة للمدنية فى كل زمان ومكان وان أدبا عرف تاريخه منذ خمسة عشر قرناً هو من السعة بحيث لا يتسع مبحث صغير كهذا لاستيعاب جرمه الكبير .

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دلتنا الحرب الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الامم الغربية وكانت فاشية فى القديم عند أجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطابة وهى من أجل العوامل فى تربية النفوس أيام الحرب والسلم أو فى بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين واقناع يوم الحفل ، واستمالة الافكار الى رأى أو حزب فى المجالس والمؤتمرات والمجامع والجوامع ، لاتستغنى عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها اذ أن التنفير من مسألة والتذكير باخرى لايتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسان ، وفصاحة الحجة ، وظهور المحجة

والسبب فى قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسسنا بنقص فى عامة مكونات الامم ، وكان خطباؤنا المصاقع يعدون على الاصابع فى جميع أدوار مجلسنا النيابى والمبرز منهم من كتب له ان كان أستاذاً فى مدرسة أو مدرساً فى جامع ففتقت السن أهل هذه الطبقة وقليل ماهى على أيسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، أما أكثر النواب فكانوا بمعزل عما ينبغي لهم من أدوات الفهم والكلام ، والحرية فضاحة فضحتنا بقلة المتكلمين والمفكرين منا مع ان الخطابة مما أوجبته علينا الشريعة الاسلامية ، كما ظهر أمرنا ، وتبين عجزنا ، واستبان أفلاسنا فى مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهى قائمة بكم الالسن وحجز الأقلام هى التى تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث علمهم ونشر ابحاثهم ودروسهم وظهور أثر فضلهم ، وأدبهم وتحقيقهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم وانهم لايتوقعون الادور انطلاق ، حتى يظهروا ما اكنته صدورهم من العلوم والفنون وها نحن نعيش فى ظل الحكومة الدستورية ولم نشهد أثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وجل ماتصل بنا انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز فى الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء الى درجة حسنة فى الجملة ، وفى العادة ان يكون النوابغ قلائل فى كل فن فاذا عد فى الأمة عشرة منهم فى كل شأن ومطلب تعدغنية بعلمها وعقلها . ولانحطاط الخطابة الدينية فى هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لايسمعوا خطباً لاكتها الألسن منذ قرون وليس فيها شيء من النفع ، وقلة المجيدين بل المتوسطين فى هـذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلا عامياً ، بل أمياً غبياً ، وعلى العكس رأينا فى بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين فى الجملة يقولون ماله معنى فى الوعظ والارشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لايعرفونها ، وبتأثير الاخلاص والاجادة والكلام بحسب طبائع القوم ، وحاضر العصر ، كثر العاملون بأحكام الدين القائمون بتكاليفه .

وبلغت حال الانحطاط فى ضعف البيان . وفسولة الرأى والحجة ، بأكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لايكادون يقرأون الكتاب ان أصبحت نصف خطبهم زهداً فى الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لايخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بادعية مردودة فى الشرع شأنهم فى بيان فضائل الشهور والايام والبلدان والجوامع حتى خطب بعضهم وكان حشوياً جلجلوتياً فى أعظم جامع فى هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحاديث لاتعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التى لم تأت بها شريعة الرسول وقد أنكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولا سيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧

ولو كان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعة ، ومعرفة طرق البلاغة ، وما يصلح الناس ، ماعالجوا من الموضوعات مايرجع بالناس القهقرى ، هـذا فى الخطب الدينيه ، أما الخطب المدنيـة فهى أيضاً تنصرف على ذاك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتذارات وسخافات ، واستطرادات منوعات ، ولو محصت

لما بقى منها الا التافه اليسير من المعانى . اما تأثيراتها فى الافكار فضعيفة جداً . ولعل هـذا النقص البين يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائيـة والوسطى والعليا بتمرين طلبتهـم أبداً على الالقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفى النوازل والأمور العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد فى طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ويمرن الجميع على كتابة مايريدون الخوض فيه ، وعلى استظهاره أو القائه على نحو ماسارت الامم الحديثة والأمم القـديمة الراقيـة ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم باساليب القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع

وهانحن نحط لطلاب هذا الفن الطريق الذى سلكته العرب فى تقوية ملكة البيان ، معتمدين فى النقل على أئمة هـذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ، والمجودين فيها من أهل هذا اللسان ، قبل الاسلام وبعده تلقيحاً للعقول واهابة بها الى مايصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول :

(٢) حد الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكلف الاقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية والوظائف الشرعيـة وقال أبو البقاء : الخطابة هى الكلام النفسى الموجه به نحو الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنـه بمعزل عن غيره ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه الأمنية ان يتبحر فى العـلم ويتفنن فى ضروب الفهم حتى كان شيشرون خطيب الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقى وغير ذلك

ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة فى الخطيب وهناك يقتضى له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان مايستميل به الجمهور اليه فى موضوع ويصرف أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم الى آخر ويحرضهم ويقنعهم ولذلك أدخل الحكماء الخطابة الشعر فى أقسام المنطق كما نقل عن ارسطو لان المقصود منه أن يوصل الى

التصديق وأصولها عندهم ثلاثة الاول ايجاد المعانى الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثانى تنسيق المعانى أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطة وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً واحسن فى النفوس وقعاً والثالث التغيير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنتشر بها نفسه وتمتزج باجزاء فهمه . ويمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدنية يتصرف تحتها كل مافيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل مايرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدنيـة فاضلة فى الدنيا وسعادة شاملة فى الاخرى

الخطابة نوع من منثور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وابلاغها النفوس من دون اتعاب ذهن ولا تكلف فى الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس وقد كانت العرب فى جاهليتها تقـدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذى يقيـد مآثرها ويفخم شأنها ويهول على عـدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهابها شاعر غيرها . قال أبو عمرو بن العلاء : فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب . الخطب والوصايا متقاربة يقصـد بالاولى قوم لاعلى سبيل التعيين والتخصيص ، فتكون فى المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ، وامام العظماء والملوك والامراء والوفود ، وفى الصلح واشهار الحرب ، وفى الخطوب والنوازل ، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم فى زمن مخصوص على شىء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة فى الارض

(٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الاسلام ولم يظهر لنا سر هـذا لانا رأينا هـدى النبيين والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغى له وكان سيد الخطباء بلا مراء ، وكلامه خطب وحكم وبسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعر أكثر من الخطب

لأن الشعر أقرب الى تقييد المآثر والتأثير ، ولانه يحتمل من الخيال والمحال ، ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريعان) : ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهته الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد : قال ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الانام وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى رواها عنه فاطار ذكرها ماتميزت عما سواها .

قال (القلقشندى) : وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم ، وقلة اعتناءهم به لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل ، وسبق الى ذرى المجد . ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد الله ويثنى عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر ، أو فخر ، أو اصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله ويكلفون بارشاد الخلق وهذا يقتضى البلاغة والبيان المتناهى لذلك قال موسى : رب اشرح لى صدري ويسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . وذلك لانه كان به لثغة فخشى أن يعدها قومه عيبا ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد فى الكتاب العزيز من أسلوبه البديع فى البيان وتلطفه فى ابلاغ دعوته الى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : (والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير

وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثو فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . الى أن قال . ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أريد الا الأصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب : وياقوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها فى تطهير النفوس أوجبها الشارع وسنها للمسلمين فى مساجدهم كل جمعة وعيد وفى الحج أى فى عرفة وأوجب على الحضور التزام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفى الحديث : اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعا خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدى الشارع ما يهذب به أرواحهم ويهيب بهم الى بارئهم ، ويغرس فيهم مكارم الاخلاق ، ويطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغى والظلم ، ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم واحقادهم ، ويأمر بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

قال الجاحظ : انا لانعرف الخطب الا للعرب والفرس وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لاتضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف ، وانما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة ، مذكورة ، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله . ومعانيه بخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفى الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس . وكل معنى للعجم . فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثانى علم الاول وزيادة الثالث فى علم الثانى حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجزيوم الخصام ، أو حين أن يمنح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب فما هو الا أن يصرف همه الى جملة المذاهب ، والى العمود الذى يليه بقصد ، فتأتيه المعانى ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر وأمهر ، وكل واحد فى نفسه انطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذى أبدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم فى البيان ، ان يقول فى مثل ذلك الا فى اليسير والنبذ القليل ، ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ن يولدوا مثل تلك الرسائل و يصنعوا مثل تلك السير . وأخري انك متى أخذت

بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم ان الذى قلت هو الحق وأبصر الشاهد عياناً فهذا فرق مابيننا وبينهم فتفهم عنى فهمك الله ماأنا قائل »

هذه حجة الجاحظ فى أن العرب أفصح الأمم وقال أيضاً : « ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على حزبين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضوع يحسن به ، ومن الطوال مايكون مستوياً فى الجودة ، ومشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان ، والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شىء يستحق الحفظ وانما حفظها التخليد فى بطون الصحف . قال ومتى شاكل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر ان يأمن جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومن كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً فى جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، ودهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض .

فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص . وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنقاً لاهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسبقت اليه القلوب بازمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته ، وجبلت على تصويب ارادته ، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت اليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد فى خطب السلف الطيب ، والاعراب الاقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديا ، ولا قولا مستكرهاً ، وأكثر مانجد ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة

المتأدبين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخير والتفكر اه

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذى وضعه عمرو بن بحر الجاحظ فى صفحة وتدارسه يغنى طالب الخطابة عن كتاب ، ورب مقالة خير من سفر ، ولقد عرفت العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفائقة فى البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق اليها إلا أفراد ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من اكرام الشاعر . وقد ضربت المثل بالخطيب فى قولها . (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو المكان الذى تعرض فيه الدواب . وقالوا « عقل المرء من فوق لسانه » وكانت تتعاير بالفهاهة وقلة الاجادة فى البيان . وتقول : نعوذ بالله من الاهمال . ومن كلال الغرب فى المقال . ومن خطيب دائم السعال . قال بشر بن معمر فى مثل ذلك

ومن الكبائر مقول متعتع جم التنحنح متعب ميهود

وقال شاعرهم يعيب بعض خطبائهم :

ملىء بهر والتفات وسعلة ومسحة عتنون وفتل الاصابع

وضربوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما ضربوا المثل بالعى فى الكلام بباقل فقالوا فلان أعيى من باقل . وقد جمع الجاحظ فى البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء ومما قال:

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة باعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوق درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يلومون من استولى على بيانه العجز وهم يذمون الحصر . ويؤنبون العي . فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء . وتعاطيا مناظرة البلغاء . تضاعف عليهما الذم . وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة (مماطلة) العى الحصر البليغ المصقع . فى سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق وأحدهما لوم من صاحبه . والالسنة اليه أسرع . وليس اللجلاج « المتردد فى كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى حنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء

والميم » والالثغ « الذى يحول لسانه من السين الى الثاء أو من الراء الى الغين » والفأفاء « مردد الفاء » وذو الحبسة « الذى لا يسمع قوله » والحكلة « الذى لا يسمع صوته » والرتة « العجمة » وذو اللقف « عي بطيء الكلام اذا تكلم ملأ لسانه فمه » والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته والعى فى مناضلته خصومه كما أن سبيل المفحم عند الشعراء والبكيء عند الخطباء . خلاف سبيل المسهب الثرثار والخطل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة » والتقعير « التكلم باقصى الفم » والتقعيب « تقصير الكلام » من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد . أعذر من عى يتكلف الخطابة . ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد والدربة ومدارسة اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف . وبياناً يمازجه التزيد : الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدرب التام . أقبح من تعاطى البليغ الخطيب . ومن تشادق الاعرابى القح . وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والالفاظ وفى التحبير والارتجال انه البحر الذى لا ينزح . والغمر لا يسير أيسر من انتحال الحصر المنخوب « الجبان » انه فى مسلاخ « صفة » التام الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : إياى والتشادق . وقال . أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون . وقال : من بدا جفا . وعاب العدادين (الشديدى الصوت) والمتزيدين فى جهارة الصوت . وانتحال سعة الاشداق . ورحب الملاصم . وهدل الشفاء « إرسالها الى أسفل » وأعلمنا ان ذلك من أهل الوبر أكثر وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى . بأكثر مما عاب به الوبرى . فما ظنك بالمولد القروى . والمتكلف البلدى . فالحصر المتكلف والعى المتزيد الوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر لان الشبهة الداخلة عليه أقوى فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشادقين . ومن الثرثارين المتفيهقين . ومن ذكره النبى صلى الله عليه وسلم نصاً . وجعل النهى عن مذهبه مفسراً . وذكر مقته له وبغضه إياه

(٦) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية . اذا صاحبت

فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب . كل قول عجيب . وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان — كما ان شيشرون أخطب خطيب عند الرومان خطب فى الجمهور أول مرة ولم يحسن الالقاء لانه كان ألثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصوت فحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة فى فمه وانشاد أبيات وهو يركض على شاطىء البحر ويرتقى الروابى والآكام

قال الجاحظ أخبرنى محمد بن عباد وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال سمعت ابا داود بن جرير يقول وقد جرى شىء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه ، وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال : تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عمى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه أول الكلام أسهاب ، قال : وسمعته يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه

وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : انى لأكره ان يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله ، قال أبو عثمان الجاحظ : هذا كلام شريف نافع ، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه ، ثم اعلموا ان المعنى الحقير الفاسد ، والدنى الساقط يعشش في القلوب ، ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجرانه ، ومكن بعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى داؤه ، ويمتنع دواؤه ، ولأن اللفظ الهجين الردىء ، والمستكره الغبى ، أعلق باللسان ، وآلف للسمع . أشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست الجهال والنوكى ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من أوضار كلامهم ، وخيال معانيهم ، بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً ، ولأن الفساد أسرع الى الناس ، وأشد التحاماً بالطبع ، واللسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكمة ، يجود لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج فى الجهل الى أكثر من ترك التعلم ، وفى فساد البيان الى أكثر من ترك التخير

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبشر والرطب . أبصر منهم بالخطب ، فقال له صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه ، وان البرد ليعقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه

قال أبو عثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، وأهل البيان وحب التبيين ، انما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه اهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب ، والذم له ألزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافق والانتفاع ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العامة الى معرفة خطأ القول ، أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، في معنى النطق بالباطل ولعمري ان الناس الى الكلام لأسرع ، لان في أصل التركيب ان الحاجة الى القول والعمل ، أكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، أفضل من عامة السكوت ، وقد قال الله عز وجل ، سماعون للكذب أكالون للسحت . فجعل سمعه وكذبه سواء

وقال الشاعر :

بني عدي ألا ينهى سفيهكم ان السفيه اذا لم ينه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج ويستشري

وكيف يكون الصمت انفع ، والايثار له افضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كما روت كلام الناطقين ، وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصمت

المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان وقال ابو بكر بن عبد الله المزنى : طول الصمت حبسة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبلدت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب ، لأن ذلك يفتق اللهاة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا أكثرت تحريكه رق ولان ، واذا أقللت تقليبه وأطلت اسكانه جسا وغلظ ، وقال عبابة الجعفى : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً ، وأية جارحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال ، أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع

(٧) نصائح لطالب الخطابة

مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه ، وكان أول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً وأحسن فى الاسماع ، وأحلى فى الصدر ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وعزة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وأعلم ان ذلك أجدى عليك ، مما يعطيك يومك الا طول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراع معنى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما ، وكن فى ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخما سهلا ،

ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، لطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان . قال أبو عثمان : اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً واذا سمعتمونى اذكر العوام ، فانى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، ولست أعنى الاكراد فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الامم مثل البربر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وانما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضاً .

قال بشر : فان كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة التى لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختبار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك ، نصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك انه فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة ، وتعصى عليك بعد اجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لاتعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أوجريت من الصناعة على عرق ، فان تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فان لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب ، والشىء لايحن الا الى مايشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النفوس لاتجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة

(٨) مايجب على الخطيب ومالايجب

قال بشر بن المعتمر : وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعانى ، ويقسم اقدار المعانى على أقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات ، فان كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه ان عبر عن شىء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلا كان أولى الالفاظ به ألفاظ المتكلمين اذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل واليها أحسن وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر أوفى سدة دار الخلافة أوفى يوم جمع وحفل اما فى اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان : ثم ان الله عزوجل بعد ان أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا ولولا ان المتكلم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشى لكان

ينبغى أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال فى خطبته : وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله فى باب الايسية الخ . قال : وكما لا ينبغى ان يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسميج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا

فان زعم زاعم انه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العى والبكى ، والحصر والمفحم ، والخطل والمسهب ، والمتشدق والمتفيهق ، والمهاز والثرثار ، والمكثار والهماز ، ولم ذكروا الهجر والهذر ، والهذيان والتخليط ، وقالوا رجل تلقاعة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدق) وفلان يتلهيع فى خطبته وقالوا فلان يخطىء فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض فى خبره ولو أن هذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء . قال أبو عثمان وأنا أقول انه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء العلماء البلغاء

يروى ان مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود : حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة فأمسك قال : وجعل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى قالت : ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه . قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب فى التوراة لا يعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهرى قال : اعادة الحديث أشد من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤنة

الاستماع منك ، وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد يحصره من العوام والخواص

قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وافهاماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان فى الارض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاسارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة وقال مرة : مارأيت أحداً كان لا يتجسس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذى لابد منه ان يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد غنيا عن التأويل

قال أبو عثمان : أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال سفيان بن عيينة : تكلم صعصعة عند معاوية فعرق فقال معاوية : بهرك القول فقال صعصعة : ان الجياد تضاحة بالماء . والفرس اذا كان سريع العرق وكان هشا (كثير العرق) كان ذلك عيبا وكذلك هو فى الكثرة واذا أبطأ ذلك وكان قليلا قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يحب أيضا

(٩) لطالب الاجادة فى خطبته

رأيت بما مضى بعض العيوب التى يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها مما ذكره أبو عثمان الجاحظ وهاك الآن قطعة أخرى له قال : قال بعض الربانيين من الادباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الاغراق فى القول ، والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودواؤه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذى يورث الاقتدار من التهكم والتسلط والذى يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعانى والخلابة وحسن المنطق . قال فى بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقاً صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملا والمعانى اذا

كسيت الالفاظ الكريمه ، والبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت ، فقد صارت الالفاظ فى معنى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى . والقلب ضعيف . وسلطان الهوى قوى . ومدخل خدع الشيطان خفى . فاذكر هذا الباب ولا تنسه . وتأمله ولا تفرط فيه . فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف بعد ان احتبسه حولا محرما (تاماً) ليستكثر منه وليبالغ فى تصفح حاله والتنفير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم . وقد خفت أن تكون منهم . الا لما كان راعه من حسن منطقه ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه قال الجاحظ : فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى . ولا تجعل همك فى تهذيب الالفاظ وشغلك فى التلخص الى غرائب المعانى وفى الاختصار بلاغ وفى التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه

وقد رد الجاحظ على من زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، وجعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا قال : وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء باكمالهم (؟) كما لا يعرفون ركاكة الرومى والصقلبى وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بمواء السنور كثيراً من ارادته وكذلك الكلب والحمار والصبى الرضيع

قال : وكانوا يمدحون شدة المعارضة وقوة اللسن وظهور الحجة ، وثبات الجهاد ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقه والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر . والتكلف والاسهاب . والاكثار لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى . والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون

الفضول فى البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة . والسلاطة تدعو الى البذاء . وكل مراء فى الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه . وحاسب نفسه وخاف الأثم والذم . اشفق من الفرارة . وسوء العادة . وخاف ثمرة العجب . وهجنة القبح . وما فى حب السمعة من الفتنة . ومافى الرياء من مجانبه الاخلاص

قال : وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت . وبالتحرز من زلل الكلام . ومن زلل الرأى ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأى الاول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرون بالتحلم والتعلم وبالتقدم فى ذلك أشد التقدم قال : وأنا أوصيك ان لاتدع التماس البيان والتبيين . ان ظننت ان لك فيهما طبيعة . وانهما يناسبانك بعض المناسبة . ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القريحة . ويستبد بها سوء العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة . وبقوة المنة يوم الحفل . فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة . وأرفعها فى البيان منزلة ولا يقطعنك تهيب الجهلاء . وتخويف الجبناء . ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها . والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . فان أردت ان تتكلف هذه الصناعة . وتنسب الى هذا الادب . فقرضت قصيدة . أو حبرت خطبة . أو ألفت رسالة ، فاياك ان تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك ، الى ان تنتحله وتدعيه . ولكن اعرضه على العلماء فى عرض رسائل أو أشعار أو خطب . فان رأيت الاسماع تصغى له . والعيون تحدج اليه . ورأيت من يطلبه ويستحسنه . فانتحله وان كان ذلك فى ابتداء أمرك أو فى أول تكلفك فلم تر طالباً ولا مستحسناً فلعله أن يكون ما دام ريضاً أن يحل عندهم محل المتروك فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية . فخذ فى غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذى لايكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة . ويكون له طبيعة فى الحداء . أو فى التعبيرات فى القراءة بالالحان وليس له طبيعة فى الغناء

وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون ويكون له طبيعة فى الناى ، وليس له طبيعة فى السرناى ، ويكون له طبيعة فى قصبة الراعى . ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبع فى صناعة اللحون . ولا يكون له طبع فى غيرها ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً

وقال ليس فى الارض كلام هو أمتع ولا أنفع . ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة . ولا أفتق للسان . ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم فى عامة ماوصفوا إلا انى أزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعانى وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع . وربما أمتع بأكثر من أمتاع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعانى . كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً وانما الكرب الذى يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التى هى لا حارة ولاهى باردة . وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن فى الحار جداً والبارد جداً وكان محمد ابن عباد ابن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط . قلنا وهذا يشبه ما قاله لابروبير فى كتابه الأخلاق : من الاشياء مالا يطاق فيه التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن قوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى أمور كثيرة ، منها مايكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الاشارة ، ومنها مايكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جواباً ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها مايكون شعرا ، ومنها مايكون سجعاً وخطبا ، ومنها مايكون رسائل . فعامة مايكون من هذه الابواب الوحى فيها ، والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين ، وفى اصلاح ذات البين ، فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير أملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته ،

كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير فى كلام لايدل على معناك ، ولا يشير الى مغزاك ، والى العمود الذى اليه قصدت ، والغرض الذى اليه نزعت قال فقيل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف . قال : اذا أعطيت لكل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لاينال .

(١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ فى الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا ، وربما كان خطيبا فقط وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط ، ومن الشعراء الخطباء الانبياء الحكماء قس بن ساعدة الايادى والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل . ومنهم عمرو ابن الاهتم المنقرى وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعى واسمه خداش بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكميت بن زيد لاسدى وكنيته أبو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائى وكنيته أبو نفر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار أحد بنى ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادى وعجلان بن سحبان الباهلى وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء أعشى همذان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرنى ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل واشارة ، عيسى بن يزيد بن دأب أحد بنى ليث

ابن بكر وكنيته أبو الوليد . ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو. وممن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة سهل بن هرون بن راهيبون الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهذلية وغير ذلك من الكتب . ومن الخطباء الشعراء علي بن ابراهيم بن جبلة بن مخرمة

ذكر الجاحظ ثمامة بن اشرس فقال : ماعلمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن اشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك ، باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب: معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخريمي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاصاً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى ابن أبان الرقاشي من أصحاب أنس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلا وكان خطيباً وكان قاصاً مجيداً . قال أبو عبيدة : وكان أبوهم خطيبا وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الا كاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في أهل هذه اللغة كمقامهم في أهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء اليهم ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بينا ، وخطيباً لسناً . ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ،

والكلام الصحيح . والامثال السائرة ، والمخارج العجيبة ، هند بنت الحسن وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومى من قريش . وأبو ماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء . ومن خطباء بنى أسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس ومن أهل اللسن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية قيل لسعيد بن المسيب من أبلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : ليس عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة . فمن العجب ان ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاماً . وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصى وابنه من الكلام الا ماله بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الاشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب . ومن الخطباء سهيل بن عمرو الاعلم أحد بنى حسل بن معيص . وعبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وما علمت انه كان فى الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمنا ان أحداً ولد لهما حرفاً واحداً

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان من ذوى الرأى والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة فى الشرف وكان هو الساعى بين الازد وتميم فى الصلح . ومن بنى الحرقوس شعبة بن القلعم . وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافا فصيحاً وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا فى هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لا يصبر عنه

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان ناسباً راوية شاعراً وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً ومنهم معلل بن خالد أحد بنى انمار بن الهجيم وكان نسابة علامة راويه صدوقاً مقلداً ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة ورواية

نسابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمر بن خولة كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذى أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو اسحق بن هشام المخزومى ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان ومنهم أبو نوفل بن أبى عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بنى عريج ومن بنى كنانة ثم من بنى ليث ثم من بنى الشداخ يزيد بن بكر بن دأب وكان يزيد عالماً ناسباً وراوية شاعراً . وولد يزيد يحيى وعيسى وهو الذى يعرف فى العامة بابن دأب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . وكان أبو الاسود الدؤلى واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأى ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، ومنهم زياد بن ظبيان التيمى العايشى وكذلك ابنه عبيد الله كان أفتك الناس ، وأخطب الناس . ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل . وكان عثمان بن عروة أخطب الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قريش خالد بن سلمة المخزومى . ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب ابن زرارة وهو كان الخطيب عند النبى صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود ابن أبى سبرة ويكنى أبا نوفل من أبين الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مفلقاً . ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبدالله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال :

اذا قال لم يترك مقالا لقائل ... بملتقطات لاترى بينها فضلا
كفى وشفى مافى النفوس ولم يدع ... لذى أربة فى القول جداً ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة ... فنلت ذراها لادنيا ولا وغلا

ومن الخطباء بنى هاشم أيضاً داود بن على وكان يكنى أبا سليمان . وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط

وله كلام كثير معروف محفوظ . ومنهم عبد الله بن الحسن . ومن خطباء بنى هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكى : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان أبين منه قاعداً ، واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب استحفر (مضي مسرعا فلم يرده شيء) وكان فى لسانه شبيه بالرثة وكان أيوب فوق داود فى الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود فى الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من أدق الناس لسانا ، وأحسنهم بيانا

ومن خطباء بنى هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن على وكان أحد من ينازع زيداً فى الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى اصالة الرأي ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الاسماء ، الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق ابن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبد الله بن على وداود بن على يعدلان بامة من الامم . ومن مواليهم ابراهيم ونصر ابنا السندي فاما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يعدو حديث ابن الكلبى والهيثم . وأما ابراهيم فانه كان رجلا لا نظير له وكان خطيبا ، وكان ناسبا ، وكان فقيها . وكان نحويا عروضيا ، وحافظا للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الالفاظ ، شريف المعانى وكان كاتب القلم كاتب العمل .

ومن خطباء تميم جحدب وكان خطيبا راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة ابن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيها عالما قاضيا ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيبا ناسبا ، وكان حاضر الجواب مفوها ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبى وكان يكنى أبا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين فى الخواص خالد بن صفوان الاهتمى . ومن خطباء بنى ضبة حنظلة بن ضرار

وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك وقعة الجمل ومن خطباء بنى ضبة وعلمائهم منجور ابن غيلان خرشة وكان مقدماً فى المنطق

ومن خطباء الخوارج حبيب بن جدرة وقطرى بن الفجاءة وله خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ . ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة وكان صفرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج شبيل بن غرزة الضبعى صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً ومن الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . وعبد الاعلى بن عبد الله ابن عامر ويزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيبانى ومن خطباء الخوارج وعلمائهم عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدرة الهلالى . ومنهم المقعطل قاضى عسكر الازارقة أيام قطرى ومنهم عبيدة بن هلال اليشكرى ومنهم الضحاك بن قيس ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبرى . ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن رقبة وكرب بن رقبة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان أبو عمار الطائى خطيب مذحج كلها . ومن الخطباء أيوب بن القرية . ومن خطباء غطفان فى الجاهلية خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمى بن مازن بن فزارة وخويلد خطيب يوم الفجار . ومن الخطباء الوضاح بن خيثمة ومن أصحاب الاخبار والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات بنو الكواء . ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤى وكان يخطب العرب عامة ويخص كنانة خاصة على البر فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤى الى عام الفيل

ومن الخطباء الابيناء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب ابن شيبة . قال أبو الحسن : كان أبو بكر خطيباً . وكان عمر خطيباً . وكان عثمان خطيباً . وكان على خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية ابن يزيد ومروان وسليمان بن الوليد وولىد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز . ومن خطباء بنى هاشم زيد بن على وعبد الله بن حسن وعبد الله ابن معاوية خطباء لايجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبى الحسن البصرى . ومطرف بن عبد الله الحرشي . ومورق العجلى . وبكر بن عبد الله المزنى .

ومحمد بن واسع الازدى ويزيد بن أبان الرقاشى ومالك بن دينار السامى . وليس الأمر كما قال فى هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز ، فاما الخطب فانا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها وهؤلاء وان لم يسموا خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم هاشم بن عبد الاعلى الفزارى . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابى ومن بنى هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى . ومن خطباء بنى تميم عمرو ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه ومن بنى منقر عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم صفوان بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وقد ولى خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وعبد الله بن عبد الله ابن عبد الله بن الاهتم وخاقان بن الاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان وكان أخطب بنى تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل ابن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بنى منقر الحكم بن النضر وهو أبو العلاء المنقرى . ومن خطباء بنى صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى . ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس عمارة بن أبى سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله وخير ابنا حبيب ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعباس ابنا رؤبة وكان العباس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم وكان يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل أبو الليح الهذلى أسامة بن عمير . ومنهم أبو بكر الهذلى كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً وعالماً بالأخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة ابن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبى صفرة ، ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شقى الحمرى كان أخطب العرب ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبى ، ومنهم روح بن زنباع ، ومن خطبائهم الأسود بن الكذاب كعب

العنسى ، وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاعا كاهناً وناسباً ، ومن خطباء الانصار بشر بن عمرو بن محض وهو أبو عمرة الخطيب ومنهم سعد بن الربيع ، ومن القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شرية الجرهمى وأسقف نجران واكيدر صاحب دومة الجندل وأفيمى نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب وعمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو مزيقيا وجذيمة بن مالك الأبرش ، ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع سموه بذلك لسلاطة لسانه ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقس بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة

ومن النساك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان ابن أدهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة ابن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلى وبكر بن عبدالله بن الشخير الحرشى ومالك ابن دينار وحبيب أبو محمد ويزيد الرقاشى وصالح المزني وأبو حازم الاعرج وزياد مولى عياش بن أبي ربيعة وعبدالواحد بن زيد وحيان أبو الاسود ودهثم أبو العلاء

ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن هاشم وأم الدرداء ومن نساء الخوارج البلحاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ومن نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوق وهند ، وأبو الوليد الحكم الكندى ومحمد بن محمد الحمرانى وكلاب وكليب وهاشم الأوقص وابو هاشم الصوفى وصالح بن عبدالجليل والخطفى وهو جد جرير بن عطية بن الخطفى وهو حذيفة بن بدر بن سلمة

ومن القصاص أبو بكر الهزلى وهو عبد الله بن أبى سليمان كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشخير فى مكان أبيه ، ومن كبار القصاص ثم من هزيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوضين ، ومن القصاص موسى الاسوارى وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها

للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى بأى لسان هو أبين واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل منها الضيم على صاحبتها الا ماذكروا من لسان موسى بن سيار الاسوارى

قال أبو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة فى العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية وفى معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة ابن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحار بن عياش وصحار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة على ومنهم مصقلة بن رقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقبة

نقل بن النديم من خط بن مقلة أسماء الخطباء فاذا هم : أمير المؤمنين على عليه السلام طلحة بن عبيد الله ، خالد واسماعيل ابنا عبد الله القسرى ، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبد الله بن خالد ، خالد بن صفوان ، عبد الله بن الأهتم ، صعصعة بن صوحان ، ابن القرية ، محمد ابن قيس الخطيب ، زياد بن أبى سفيان ، قطرى بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، أبو جعفر المنصور ، المأمون شبيب بن شيبة ، العباس بن الحسن العلوى ، محمد ابن خالد بن عبد الله القسرى وعبد الله ابنه ، شبة بن عقال

الخلاصة

قال ابو جعفر النحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن فى أساليب الخطباء من آكد مايحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب فى مشاهدهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب ، قال أبو هلال العسكرى : الرسائل والخطب متشاكلتان فى انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة اهـ

ونحن نوصى القارىء أن لا يغفل خصوصاً عن خطب على بن أبى طالب كرم الله وجهه فان نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلا على شرح ابن أبي الحديد المطول وتمرن فى أساليب الخطابة على مناحى البلغاء والعرب المستعربة والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن فى هذا العصر أيضاً فان كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كررحلا ، ومهما تأملته علا ، ففى كلامه عبقة من النور الأعلى ، ونفحة من الروح النبوى ، ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً فى شرفه وبيانه وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة

الخطابة عند الأفرنج

من تأمل فى تاريخ الطرق الخطابية يرأن القدماء [1] أفرطوا فى فن الخطابة وانه وان صعب العثور على مبدأ معين فى كتب الاقدمين وطريقتهم فى خطاب الجمهور فان جميع المصنفات التعليمية تحوى إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم الكلام ، فان علم الخطابة لم يكن فى نظر القدماء هو علم التكلم والالقاء ، بل علم تحسين الكلام وتنميق الانشاء . ومن تلا كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث جليلة فى الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون العبارات قبل أن يتلوها وتتراءى له من خلال سطورهم آثار التعمل والاستعداد قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامى فى آثينة أن يدافع عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم فى الدفاع ويعطوها لغيرهم يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء فى يونان وان وجدوا فهم على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

١ كتاب الكلام فى الجمهور لموريس آجام Maurice Ajam : La parole en public